

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

من أجل الأسرة المجمع

الأعمال
الإبداعية

ثقوب فى الثوب الأسود

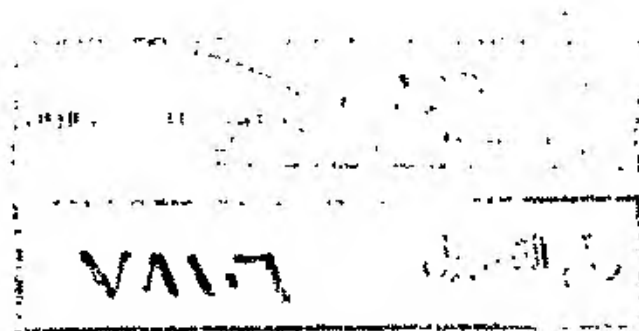
إحسان عبد القدوس



الهيئة العامة
للكتاب

ثقبوب فى الثوب الأسود

ثقوب في الثوب الأسود



إحسان عبد القدوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

ثقوب فى الثوب الأسود
إحسان عبد القدوس

الخلافه

للغنان جمال قطب

الإشراف الفنى:

للغنان محمود الهنسى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الرياضية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التوعوية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضاري المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضي في مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

إحسان عبد القدوس

بقلم إحسان عبد القدوس

● ولدت لأبى الأستاذ محمد عبد القدوس وأمى السيدة فاطمة اليوسف التى عرفت باسم «روز اليوسف».. وكلاهما فنان.. درس أبى الهندسة وبدأ العمل موظفاً فى الحكومة كناظر مدرسة الأقصر الصناعية ثم ترك الحكومة وتفرغ كلية للفن.. كان كاتباً يكتب المسرحيات والشعر والزجل ويمثل على المسرح ويلقى مونولوجات يضع كلماتها وألحانها.. وأمى بدأت ممثلة تعيش فى وسط المسرح منذ كانت فى العاشرة.. والتقت مع أبى عام ١٩١٦ وأنجبانى فى أول يناير عام ١٩١٩.. ولكنهما كانا قد انفصلا لاختلاف نزعاتهما الفنية.. وأخذنى أبى منذ ولدت وتركى لأبيه وجدى الشيخ أحمد رضوان وكان من خريجي الأزهر ومن رجال القضاء الشرعى، وكان متحفظاً إلى حد التزم فى كل ما يفرضه الإسلام، ورغم ذلك فكان متميزاً بتقدير الفن وكان يتردد عليه كأصدقاء كبار المطربين والفنانين على أيامه، كما كان مشاركاً فى القضايا السياسية وكان كثير من قادة الثورة منذ أيام مصطفى كامل إلى أيام سعد زغلول يعهدون إليه بالإشراف على شئونهم إذا اضطروا إلى الهجرة خارج مصر.. وفى بيت جدى كانت الأم التى ترعائى هى عمى السيدة نعمات رضوان وإن كان لم يحرموا أمى منى رغم عدم رضائهم عنها لأنها امرأة متحررة تعمل بالتمثيل على المسرح..

وقد أثر على اختلاف المجتمعين اللذين أعيشهما تأثيراً أساسياً فى تكوين شخصيتى وعقليتى.. مجتمع جدى المحافظ المتزمت فى دينه ومجتمع أبى وأمى المتحرر المنطلق.. وقد بدأت منذ وعيت وأنا أتساءل من منهما المجتمع الصالح.. مجتمع جدى أم مجتمع أبى وأمى.. ووجدت نفسى حائراً بين المجتمعين وهو ماعودنى ألا أمتسك للواقع أبداً إلا بعد أن أدرسه وأفكر فيه إلى أن أثور عليه أو اعترف به.. وكنت منذ طفولتى أرفض التقاليد الاجتماعية لأن التقاليد أيامها كانت تظلم أمى.. ولكن أحدد تصرفاتى الاجتماعية بعد تفكير وعلى مسئوليتى الخاصة.. وقد بدأت أمسك بالقلم وأكتب منذ بدأت أعى وذلك تقليداً لوالدى، وبلغ

التقليد إلى أنى كتبت أول مسرحية لى وأنا فى العاشرة من عمرى.. وفى عام ١٩٢٥ أصدرت والدتى مجلة «روز اليوسف» وأصبحت والدتى لا تريد أن أتمرد مقلداً لأبى وأكون مجرد أديب ولكنها تريدنى أن أتفرغ للصحافة وللعالَم الصحفى والسياسى حتى أكبر وأتحمل مسؤولية مجلة «روز اليوسف».. حتى أنها بعد أن كبرت قليلاً كانت ترفض أن تنشر لى أى عمل أدبى فى روز اليوسف إلى أن أرسلت يوماً قطعة من الشعر المنشور إلى جريدة روز اليوسف دون أن أضع عليها إسمى فنشرت فى الصفحة الأدبية.. وكانت أول ما ينشر لى فى حياتى.. وعندما أبلغت والدتى بأنى كاتب هذا الشعر المنشور غضبت وعاقبتنى بأن خصمت مصروفى الأسبوعى الذى كانت تعطيه لى.. لأنها لا تريدنى أن أكون أديباً بل تريدنى صحفياً..

وهكذا وجدت نفسى أديباً وصحفيًا دون تعمد أديب لأبى وصحفى لأمى.. فن واحد لم أره من أبى أو أمى وهو فن التمثيل.. فرغم أنى كنت أتردد معهما على أجواء المسارح إلا أننى منذ صغرى كنت أشعر بهيبة نحو فن التمثيل كأنى أخافه فلم أحاول أن أكون ممثلًا بل أكثر من ذلك فإنى إلى اليوم لا أستطيع ولا أحاول أن أقف فى مواجهة جمع من الناس لألقى خطبة أو أشعره فى مناقشة عامة بل أنى اعتذر دائماً عن التحدث فى الإذاعة أو على شاشة التلفزيون..

ولأنى أعيش المجتمع الصحفى بجانب المجتمع الأدبى فقد تعرفت بكل أكابر الأدباء والصحفيين من صغرى.. وبدأت من صغرى أهتم بالدراسات السياسية وكنت أشترك اشتراكاً فعالاً فى كل الثورات والمظاهرات السياسية منذ كنت طالباً فى المدارس الثانوية.. وبعد أن التحقت بكلية الحقوق بالجامعة تفرغت تفرغاً تاماً للدراسة ولم أكتف بدراسة القانون بل أنى درست كل الأدب العالمى وكل التاريخ العربى والعالمى وكل المذاهب السياسية ونظم الحكم التى ظهرت.. وهو ما أقادنى كثيراً فى تكوين نفسى ككاتب..

وقد اشتغلت بالإنشاد بعد تخرجى فى كلية الحقوق ولكن فى الواقع كنت متفرغاً للصحافة، ولأنى ابن صاحبة مجلة «روز اليوسف» فقد تميزت بالحرية الكاملة فى كل ما أكتب لأن والدتى كانت قد منحتنى هذه الحرية كما منحتنى سلطة كاملة

فى النشر.. وقد وصلت بحريتى الى حد أنى لم أكن أقيد آرائى بالانتماء الى أى حزب أو الانسحاب الى أى رئيس ولا حتى الارتباط بصداقة يمكن أن تقيد رأىى.. وأنا الى اليوم أعيش هذه الحرية..

وقد بدأ تفكيرى الوطنى والسياسى بالتطور السريع الى رفض كل الواقع السياسى الذى تعيشه مصر، وأصبحت - حتى على خلاف مع أمى - أعتبر مفكراً وكاتباً ثورياً أعتمد على فكر الجيل الجديد الذى أنتمى إليه لا على فكر الجيل الذى سبقنى.. وكنت مساهماً بالرأى الذى أكتبه فى كل الثورات التى تقوم فى مصر بما فيها ثورة ٢٣ يوليو..

وقد استطعت أن أثير قضايا سياسية هامة كان أشهرها قضية الأسلحة الفاسدة.. وهى قضايا أثارت لى متاعب كثيرة فقد قبض علىّ ودخلت السجن ثلاث مرات.. ووقفت أمام النيابة للتحقيق معى عشرات المرات، وحاولوا اغتيالى أربع مرات.. وكل رئيس دولة كان يدخلنى السجن أو حتى كان يحاول اغتيالى كان يعطرن لى فيما بعد لأنهم كانوا كلهم يعرفون أنى لست فى خدمة أحد ولا أعبر عن رأى أحد ولكن دائماً كاتب حر فى رأيه..

وبعد أن اطمأنت والدتى على أنى استطعت أن أحقق وجودى كصحفى وكاتب سياسى، منحتنى نفس الحرية فى نشر انتاجى الأدبى.. ومن يومها وأنا أنشر القصص التى أعتز بها اعتزازى بكل تاريخ حياتى.. ومنذ بدأت أعمل فى روز اليوسف وأنا أتمنى أن أنشر مقالاتى وقصصى فى الصحف الأخرى حتى أثبت لنفسى وللناس بأنى لا أنشر فى روز اليوسف مجرد أنها مجلة أمى بل أنى أستطيع أن أنشر فى أى صحيفة...

أما عن إحساسى الخاص فإن أجمل سعادة أعيشها هو أنى استطعت أن أسعد عائلتى.. أسعدت أبى بأن جعلته مقتنعا بى ولأنى ساهمت فى توفير الحياة الكاملة والسعيدة له.. وأسعدت أمى بأن حملت عنها المسئولية واستطعت أن أستمّر بمجلة روز اليوسف.. وأسعدت أعز مخلوقة لدى وهى زوجتى وأسعدتنى فقد عانت معى الى أن استطعنا أن نقيم هذه الحياة السعيدة.. ثم أسعدت إبنى محمد وإبنى أحمد

وأسعداني بأن نجح كل منهما في العمل الذي اختاره لنفسه وفي المكانة الاجتماعية
التي وفرها لنفسه.. وأجمل ما في حياتي اليوم وأعز من لي هم أحفادي كريم ومحمد
وشريف.. وفقهم الله وشغلهم برعايته كما شغلني وشغل آباءهم..
وكل هذا ليس تاريخ حياتي فتاريخ الحياة هو دائما موضوع العمر كله بكل
تفاصيله يتطلب كتابا بل عشرات الكتب.. انما مجرد كلمة..

دی لب از سر بر من تن ، و بزمین صدم
نفس .. دی بزمین لود ..
و امر بزمین
امام علی بن ابی طالب
۶۹/۶۸

في عام ١٩٥٠ دعيت للاشتراك في مؤتمر الطب النفسي الذي عقد في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة ..

ولم أكن في حاجة الى حضور هذا المؤتمر ، فاني أمتفيد من قراءة بحوث الأطباء العالميين ، أكثر مما أمتفيد من مناقشتهم .. ولكنني كنت في حاجة الى الرحلة نفسها .. كنت قد قضيت عامين أعمل خلالهما كل يوم .. كل يوم أغوص في نفوس الناس ، بعقلي وأعصابي ، لأصل الى هذا السر الذي يسيطر على تصرفاتهم .. ورغم اني حريص دائماً على تنظيم مواعيد عملي ، بحيث أترك لنفسي وقتاً كافياً للراحة ، الا اني تعبت ..

تعب عقلي ، وتعبت أعصابي ..

وسافرت الى بوسطن ، بالطائرة ..

وامتغرق المؤتمر الطبي أسبوعين ، وكان أمامي بعد ذلك

خمسة وأربعون يوماً أقضيها اجازة ..

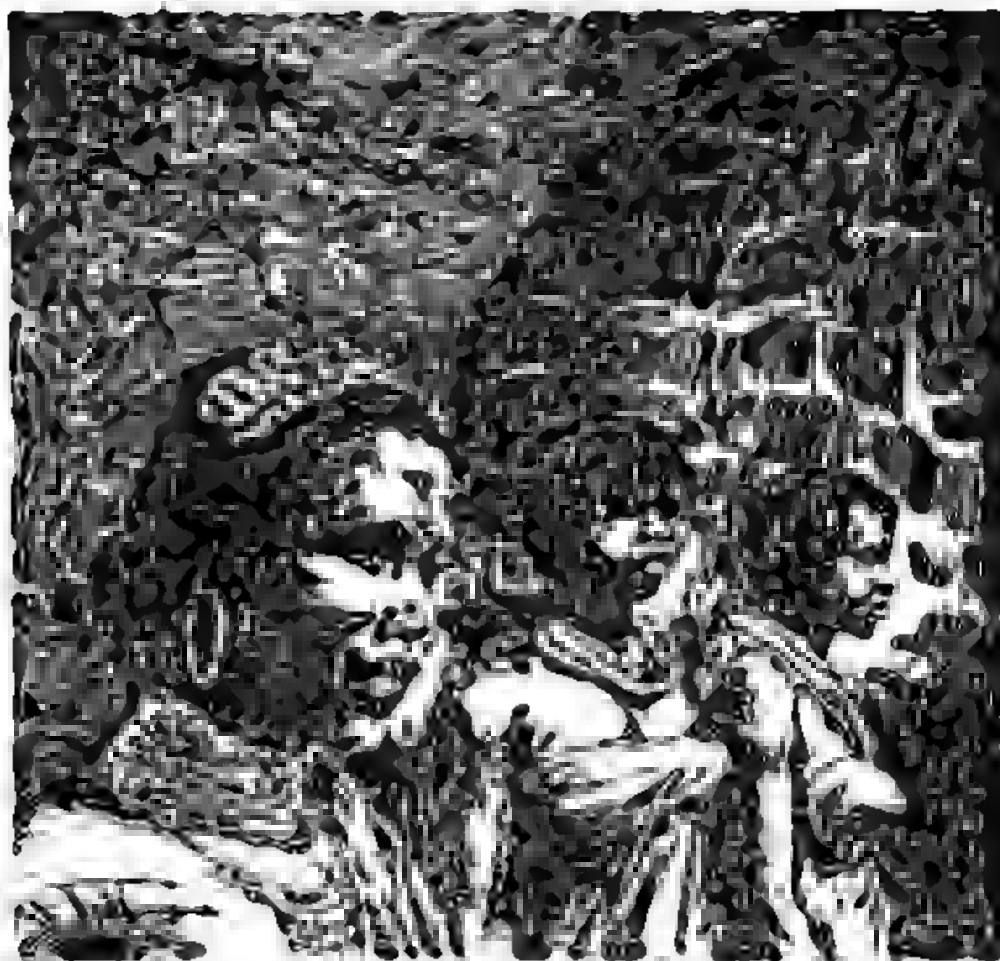
أين أذهب ؟

ان الذين يعيشون عن الراحة في مكان هادئ ، يخطئون ..

الهدوء لا يريح .. بالعكس .. انه أكثر ارهاقاً للأعصاب ..

والعقل من الضجيج .. فالراحة الحقيقية هي أن ترتاح من نفسك .. أن تجد ما يشغلك عنها .. وكل حياتك .. كل دنياك .. كل ما يحيط بك .. كل ذلك هو في داخل نفسك .. ان عملك في داخل نفسك .. وأصدقاءك وأعدائك في داخل نفسك .. ومتاعبك ومشاكلك في داخل نفسك .. فاذا لجأت الى مكان هادئ بعيد ، فأنت تبعد عن دنياك الخارجية ، ولكنك لا تبعد عن دنياك الداخلية التي تعيش فيها كل متاعب الدنيا الخارجية .. لأن الهدوء يتيح لك فرصة أكبر لمواجهة نفسك .. فاذا بك تجد عقلك مشغولا ، وأنت على ثلاثة آلاف ميل من مكتبك ، بنفس المشاكل التي يشغل بها عقلك وأنت جالس في مكتبك .. ويلم بك الصداغ ، وتتوتر أعصابك .. وكأنك لست في اجازة .. وكأنك لا ترتاح !

ولذلك تجد الرجل العنيف في عمله ، عنيفا أيضا في لهوه .. وكلما ازدادت مسؤولياته ومشاكله كلما ازداد عنفا في اللهو .. لأنه في حاجة الى هذا اللهو العنيف حتى ينسى مشاكله ومتاعبه .. ينسى نفسه .. قد يخرج الى صيد الوحوش .. وقد يلعب القمار في تهور يبلغ حتى المجازفة بكل ما يملك .. وقد يهوى مشاهدة مباريات المصارعة والملاكمة ، لأن القسوة الانسانية التي تبدو في هذه المباريات تشغله عن قسوة نفسه عليه ، وعلى أعصابه .. وفي أحسن الفروض قد يلعب الشطرنج .. وأنا أعتبر الشطرنج لعبة عنيفة لأنها تتطلب تركيز عقلك في صراع مع زميلك في اللعب ، يشغلك عن صراحك مع نفسك ..



ثم اذا لم يجد الانسان بعد كل ذلك ، الراحة .. اذا لم
يستطع أن يريح عقله وأعصابه .. لجأ الى الخمر ، أو الى
المخدرات .. والخمر والمخدرات ليست سوى عقاير تفقدك
وعيك بنفسك .. وعشاكلك .. وبدنياك الخاصة .. فترتاح ..
ترتاح من نفسك .. ثم اذا لم تستطع الخمر أو المخدرات أن
تريحك ، وصلت الى مرحلة الجنون .. وقد تصل الى الجنون
الخطر .. قد تقتل مثلا .. تقتل انسانا بعيدا عن حياتك ، ولا
ذنب له معك .. وكل ما هنالك أن عملية القتل نفسها تشغلك
عن نفسك .. تريحك برهة من دنياك الخاصة .. انها نفس الحالة
التي تدفع أحد أصحاب الملايين الى الخروج في رحلة لصيد
الوحوش .. والفرق .. أن الذي يقتل أسدا — بلا سبب —
يسمى صيادا .. والذي يقتل انسانا — بلا سبب — يسمى
مجنونا !!

ولهذا أيضا ، يتميز العصر الذي نعيش فيه بالموسيقى
العنيفة .. موسيقى الجاز .. وبالرقصات العنيفة .. السامبا ..
والتشاتشا ، والمارنجي .. و .. و .. لأن الموسيقى الهادئة لم
تعد تكفى لتشغل الانسان عن نفسه .. عن المشاكل المعقدة التي
تواجه انسان هذا العصر .. بالعكس ان الموسيقى الهادئة ،
كالمكان الهادئ ، تساعدك على مواجهة نفسك أكثر .. ومواجهة
المشاكل التي تعيش في داخل نفسك .. فلا تترتاح .. الموسيقى
الهادئة تساعدك على التفكير في مشكلة .. والموسيقى الصاخبة
تساعدك على الهرب من مشكلة !!

ولكن هذه الموسيقى والرقصات العنيفة ، ليست من طبيعة
هذا العصر وحده .. انها موسيقى ورقصات بدائية ، مقتبسة
من موسيقى ورقصات القبائل البدائية .. وهذا صحيح ..
والسبب .. ان الانسان البدائي ، كائن هذا العصر ، كان
يعيش في مشكلة نفسية في حاجة لان يهرب منها .. مشكلة
الخوف .. الخوف من الطبيعة .. والخوف من الوحوش ..
والخوف من غارات القبائل الأخرى .. والخوف من رئيس
القبيلة نفسه .. فابتكر هذه الموسيقى العنيفة ، وهو يعتقد أنه
يتوصل بها الى الآلهة ، ولكن الواقع أنه كان يهرب بها من
نفسه .. من الخوف .. من مشكلته !!

ان الموسيقى العنيفة أشبه بالتطعيم ضد الجنون .. والانسان
يطعم نفسه ضد الكوليرا ، بشبة من ميكروبات الكوليرا
نفسها حتى يحصن نفسه ضدها .. وكذلك هذه الموسيقى
والرقصات العنيفة ، أشبه بميكروبات الجنون .. تصيبك بجنون
مؤقت مخفف .. حتى تحصن نفسك ضد الجنون الكامل .. وأنا
شخصيا لا أميل الى الموسيقى الصاخبة ، ولا أرقص هذه
الرقصات العنيفة ، ولكنى في كثير من الحالات المرضية التي مرت
على ، كنت أسمع المريض ، بأن يتعلم رقصة المارلجي !!

و ..

ولعلني استطردت طويلا في شرح نظرية الراحة .. آسف ..
وعذري أني طبيب نفسي ، والأطباء عادة حريصون على تحليل
كل خلجة تخطر على تفكيرهم .. ربما لأنهم يتخيلون بعملهم ،

وربما لأنهم هم أنفسهم في حاجة الى الاغراق في التحليل لعالمهم
يصلون من ورائه الى شيء جديد ..
المهم ..

كان من المستحيل على وأنا أبحث عن مكان أقضى فيه
اجازتي ، أن أفكر في مكان هادئ ، وأنا أعرف متاعب الهدوء ..
وأعرف هذه السلسلة الطويلة من التحليلات التي تبدأ بالهدوء
وتنتهي بالجنون ..

وبدأت أبحث عن مكان صاخب ..
مكان مشير .. يشغلني عن نفسي ، وعن مشاكلي .. فأرتاح !!
وكانت صدقة .. مجرد صدقة .. عند ما مررت أمام أحد
مكاتب السياحة ، ولحت اعلانا كبيرا ، تتوسطه خريطة لافريقيا ،
كتب فوقها بالخط الأسود العريض : « افريقيا السوداء » !!
وثار خيالي ..

ثار وراء القصص الكثيرة التي قرأتها في شبابي عن أواسط
افريقيا .. أو عن افريقيا السوداء .. ثار خيالي وراء هذه الصور
الغامضة المثيرة التي لا زلت أحتفظ بها لافريقيا .. صور
الغابات .. والوحوش .. وقبائل نيام نيام .. وطرزان !
والخيال لا يحده شيء الا ما تحتفظ به في رأسك من
معلومات .. فإذا لم يكن في رأسك معلومات عن موضوع ما ،
نساوى خيالك حول هذا الموضوع ، بخيال الأطفال ..
وقد أحسست بنشوة الطفل ، وأنا أتصور نفسي في أواسط
افريقيا .. أتصور نفسي طرزان !

وبسرعة .. وبلا تردد .. قررت أن أقضى اجازتي في أواسط
أفريقيا !

وبعد خمسة أيام كنت أسير في شوارع « دكار » عاصمة
: وميناء السنغال — أو عاصمة السودان الفرنسي كما كان يسمى
قبل الاستقلال — وعلى رأسى قبعة كبيرة بيضاء من الفلين ..
تقس القبعة التي كان يضعها على رأسه الرحالة « استانلى »
الذى اكتشف مجاهل افريقيا !!

وصدمتني دكار عند ما رأيته لأول مرة من بعيد .. الهه
مدينة كبيرة ، ترتفع فيها عمارات شاهقة حديثة .. ويسير فيها
ترام وأوتوبيس وتعرض في نواقد الحوائت آخر أزياء باريس ..
ليس فيها أثر لطرزان .. ولا لشيتا .. ورغم ذلك ، فما كنت
أسير في شوارعها خطوات حتى أحسست بنفسى فى افريقيا ..
احساس مثير غريب يدفعنى الى أن أبطلق فى الوجوه ، كأنها
ليست وجوها عادية يمكن أن أقابلها فى أى بلد آخر .. ليست
وجوه الوطنيين السود وحدهم ، بل أيضا وجوه الأجانب ..
الأجانب البيض .. كل وجه يشير خيالى .. فأتخيله من عالم
آخر .. أتخيل الوجه الأبيض كأنه فى حقيقته وجه أسود مدهون
بالبياض ، وأتخيل الوجه الأسود كأنه وجه أبيض مدهون
بالسواد ..

ورائحة زاعقة حادة ، تملأ أنفى .. رائحة افريقيا .. ان هذه
الرائحة تلاقنى فى كل مكان .. تلاقنى حتى وأنا فى دكان
الحلاق الفرنسي ، يحلق لى ذقتى ، وفتاة فرنسية شقراء تقص لى

أظافرى .. وزجاجات العطر الفرنسى مرصوفة أمامى .. ان
كل ما فى فرنسا من عطور لا يستطيع أن يتغلب على هذه الرائحة
الزائقة .. رائحة افريقيا .. انها رائحة عجيبة تربطك بالأرض
التي تسير فوقها .. تشدك اليها .. كأنها تناديك الى باطنها ..

وشعور غريب بالرهبة يلا صدري كالهواء البارد .. انها
رهبة أشبه بالخوف .. خوف لذيذ .. فى كل خطوة أنتظر شيئا
مثيرا .. كأنى أنتظر أن يخرج على أسد .. أو كأنى أنتظر أن
يقفز على كفى قرد .. رغم أنى أسير فى شوارع مرصوفة ،
وضجيج عربات الترام والأوتوبيس يلا أذنى ..

ولم يزايلنى هذا الشعور — شعور الرهبة اللذيذ — طوال
الأيام الأربعة التي قضيتها فى دكار .. ولكنى أحسست بهذه
الرهبة تشدنى الى داخل افريقيا .. انك عند ما تبطلق فى الماء
مدة طويلة تحس أنك تهمل بالقاء نفسك فيه .. وهذا ما أحسست
به .. أحسست أنى أريد أن ألقى نفسى داخل افريقيا .. أن
أبتعد عن الميناء .. عن البحر .. وأكتشف ما وراءه !

وركبت القطار الى مدينة ياماكو .. فى قلب افريقيا ..
وعيناي طول الطريق تتسلقان الأشجار التي يمر وسطها القطار ..
وأفرح كالأطفال عند ما أرى عن بعد قطعة من الغزلان .. أو
الغزالة .. أو الزراف .. أو مجموعة من القردة .. وأشوق عند ما
تلتقى عيناي بالأجساد الافريقية الفارحة تقف فى كبرياء كأعواد
الأبنوس .. وتكشف الشفاء الغامقة عن ابتسامات بيضاء ..
فى لون الشمس .. فى لون اللبن الطازج .. فأبتسم لها .. أحس

أنى أغرق فى هذه الابداسيات . أحس كأنى أريد أن أقدم نفسى
لتأكلنى هذه الأسنان البيضاء ..

ولسيت ..

لسيت القاهرة ..

ولسيت عيادتى ..

لسيت ألى طبيب ..

لسيت اسمى ..

لسيت نفسى ..

الى أعيش بكلى فى نشوتى المثيرة .. فى هذه الرهبة
اللذيذة .. وفى هذا الخوف الساحر

ووصلت باماكو تعباً ..

تعباً من نشوتى ..

وذهبت الى الفندق الوحيد فى المدينة .. فندق الجرائد
أوتيل .. ونمت مباشرة ..

واستيقظت فجأة على صوت طرقات ملحة على باب
غرفتى ..

لم أكن أدري كم نمت .. ولكنى لمحت ضوء الشمس يتسلل
من خلال النوافذ الخشبية .. ونظرت فى ساعتى .. السادسة
والنصف .. والطرقات لا تزال تلح على بابى ..

وقمت وفتحت الباب

وما كدت أفتحه حتى انطلق فى وجهى رجل فاتح ذراعيه ،
وهو يصيح بلغة عربية ضخمتها اللهجة اللبنانية :

— أهلا .. أهلين .. مصرى هنا .. فى باماكو .. يا أهلا ..
.. يا أهلا ..

ومددت يدي أصافحه وأنا لا زلت فى ذهول المفاجأة
وانتتم :

— أهلا بك ..

ولكنه رفض يدي الممدودة ، وفتح ذراعيه على آخرهما ،
وهو يصيح بلهجته المضخمة :

— اسمح لى أقبلك يا أخى .. هذه فرصة نادرة .. مصرى
هنا فى باماكو .. يا أهلا يا أهلا ..

ثم احتوانى بين ذراعيه ، وضمنى بقوة ، وقبلنى فوق
وجنتى وهو يضرب على ظهري ..

ثم دخل الى الغرفة ، وأغلق الباب وراءه .. وهو يقدم لى
نفسه ..

اسمه سامى الداعوق .. مهاجر لبنانى يشتغل بالتجارة ..
وأديب ا

ولم يكف عن الكلام ..

تكلم عن القاهرة .. وعن بيروت .. وعن باماكو .. وتكلم
فى السياسة .. وفى الأدب .. وألقى قصيدة من نظمته ..

وأنا أنظر اليه .. أحاول أن أقرأ وجهه .. انه فى الثلاثين أو
الثانية والثلاثين .. طويل .. قوى البنيان .. أسود الشعر ..

ملون العينين .. بشرته تميل الى اللون الأسمر .. ولكنى
لا أستطيع أن أقرأ شيئا فى وجهه .. ربما لأن كلامه الكثير يمز

صورته يعنف .. ورغم ذلك — رغم كلامه الكثير — فهو ليس
ثقيل الدم .. بالعكس .. لقد أحسست بعد دقائق أنى أعرفه
من زمان طويل .. وبدأت أتصرف معه وأمامه كأنه صديقى ..

وسألنى خلال كلامه الكثير :

— حضرتك دكتور باطنى ؟

قلت وأنا أبتسم .

— لا ..

قال :

— جراح !!

قلت :

— لا ..

قال :

— دكتور أسنان اذن ؟

قلت :

— لا ..

قال وقد انطلقت كل لهجته اللبناية الحادة :

— يخرّب بيتك .. شو بتكون .. دكتور حيوانات !

قلت وأنا أضج بالضحك :

— لا .. دكتور تصاننى !

وسكت سامى مرة واحدة .. سكت عن الكلام .. وعن
الضحك .. ومر بأصابع مرتعشة فوق عامود السرير الذى
أجلس عليه .. ثم قبض عليه وضغط بقوة .. كأنه يقاوم شيئاً فى

نفسه .. ثم قال فى صوت خافت كأنه تغلب أخيراً على نفسه :
— تشرقنا ..

ولم يلحظ سامى أنى لمحت ارتعاشة أصابعه .. وأنا نفسى لم
أعلق أى أهمية على هذه الرعشة ، ولا على سكوته المفاجئ ،
وخفوت صوته .. فما لبث سامى أن عاد الى طبيعته والى كلامه
الكثير ..

وانتظرتنى الى أن اغتسلت وارتديت ثيابى ، ووضعت فوق
رأسى هذه القبعة الكبيرة الفلين التى كان يرتديها الرحالة
ستائلى .. ثم نزلنا معا الى قاعة الطعام فى الفندق ، وتناول معى
طعام الافطار .. ثم خرج يطوف بى فى أنحاء المدينة ..

وهو لا يكف عن الكلام .. لا يترك شيئاً يمر به دون أن
يعلق عليه ، فى سخرية مرة .. حيا وهو يسير بجانبى صديقاً له ،
ثم التفت الى مجرد أن ابتعد عنه الصديق ، وقال :

— انه مهاجر لبنانى أيضاً .. أتدرى كيف جمع ثروته ..
لقد جاء أبوه الى هنا منذ خمسين سنة ، مفلساً ، وأخذ يبيع
التراب للزواج المسلمين على أنه تراب مكة .. وجمع بذلك
ثروة وبدأ يتاجر .. وأصبح مليونيراً !!
وابتسمت ..

وأنا أتشغل عن كلام سامى بالتلفت الى الوجوه التى أمر
بها .. وجوه سمراء حلوة ، تنتشر بينها وجوه بيضاء ، كالثقوب
فى ثوب من القטיפفة السوداء .. وأزياء النساء تشغلنى .. عبادة
من الحرير الملون الزاهى فوق الرأس .. وعبادة فضفاضة من

قماش شفاف مطرز فوق ثوب واسع فاقع اللون .. أحمر
فاقع .. أصفر فاقع .. أخضر فاقع .. أى لون فاقع .. وبائعات
المانجو يسرن كالقطيع ، كل منهن وراء الأخرى وعلى رأسها
حمل ثقيل من المانجو .. ان بائعات المانجو هناك كبائعات الفجل
عندنا .. وأصواتهن تنطلق رفيعة ، لها رنين كرلين جلاجل معلقة
في أقدام غزال شارد ..

وياماكو مدينة صغيرة ، تنقسم الى قسمين .. قسم للأجانب ،
وقسم للأهالى الوطنيين .. فى القسم الأجنبى عمارات ، وفيلات ،
وشوارع مرصوفة .. وفى القسم الوطنى يسوت من طين ،
وشوارع متربة .. كآى بلد مستعمر آخر ا
وانتهينا من الطواف بالقسم الأجنبى فى مدة أقل من ساعة ..
وقلت لسامى :

— لنذهب الى الحى الوطنى ا
ورفع سامى رأسه الى بقة ، وقال بحدّة :
— لا .. ليس الآن ا

وفطرت اليه بتعجب .. ولكنه عاد وخفف حدته بسرعة ،
واستطرد قائلا كأنه يعتذر لى :
— لنر النهر أولا ..

وسرنا فى اتجاه النهر .. نهر النيجر .. وفى الطريق توقفت
قليلا ، وأخرجت آلتى القوتغرافية ، وقلت وأنا أشير الى غريق
من النساء الوطنيات متجمعات حول بائع :
— هل أستطيع أن التقط هذه الصورة ؟

ونظر سامى الى حيث أشرت .. الى النساء الوطنيات .. ثم عاد بعينه الى سريما .. كأنه غضب منى ، وقال وقد احتدت لهجته مرة أخرى :

— لا .. لا .. انهن يعضبن من التصوير .. مستجد عند النهر مناظر جميلة !
وتعجبت أكثر ..

ولم يحاول سامى أن يفسر حدثه هذه المرة .. ولكنه أوى عينيه وسار في خطوات سريعة ونظراته فوق بوز حدائه .. وقد تنبّهت الى أن سامى يسير دائما وهو ينظر الى بوز حدائه .. يتكلم .. يتكلم كثيرا .. دون أن يرفع رأسه ، أو يتلفت حوله .. كأنه يخاطب نفسه .. كأنه يخشى أن رفع رأسه أن يرى شيئا لا يريد أن يراه ..

وقد بدأت هذه الملاحظات التى أجمعها عن سامى تضايقنى .. انها تذكرنى بألى طبيب نفسانى .. تذكرنى بعيادتى .. وتدفعنى الى العمل .. وأنا أريد أن أنسى .. لا أريد أن أعمل .. أنا فى إجازة !!

وسرت بجوابه ، وأنا أحاول أن أركز كل ذهنى فيما أشاهده حولى ، حتى لا أعود فأجمع عنه مزيدا من الملاحظات .
ووصلنا الى النهر ..

نهر النيجر ..
انه نهر قد لا يزيد فى اتساعه عن نهر النيل فى بعض أجزائه .. ورغم ذلك فقد أحسست أن فيه شيئا ليس فى نهر

التيل .. فيه غموض .. وفيه قوة .. وفيه توحش .. وصوت
تدفق مياهه ، كأنه زئير مكتوم .. ومجرد اسمه .. « النيجر » ..
يشير في هذا الوهم الكبير عن أواسط أفريقيا .. ولا يخفف من
هذا الوهم لنشأت وبواخر المستعمرين المربوطة على شاطئه ..
خيل الى أن النهر وهو يزحف تحت اللنشات والبواخر يحاول
أن يشدها الى باطنه .. يحاول أن يبتلعها .. و .. وفي جانب من
النهر بعض البنات البيض .. بنات الفرنسيين والمهاجرين ..
يسبحن ، وهن مرتديات مايوهات ييكينى .. ورغم ذلك
لا يستطعن أن يخفن من قسوة النهر ، أو يروضن توحشه ..
انى اراهن كأنى أرى فتيات السيرك يلعبن فى فم الأسد .. وفى
جانب آخر .. بعيد .. بعيد جدا عن منطقة المستعمرين ، تجلس
على الشاطئ بعض النساء الوطنيات يفسلن ثيابهن ، وصدورهن
العارية تتدلى أمامهن كقوالب العنبر ..

واتجهت الى النساء الوطنيات لألتقط لهن صورة
فوتغرافية ..

ومرة ثانية احتقن وجه سامى .. وارتعشت يداه .. وخلجة
فوق شفته العليا ترتعش بشدة ..

ثم صرخ كأنه لم يعد يستطيع أن يطيق :

— لماذا تريد تصويرهن .. انهن زوج .. عبيد ..

متوحشات .. خير لك أن تقتلن .. يجب أن يقتلن .. كل
العبيد يستحقون القتل .. سأقتلهم .. نعم .. سأقتلهم !

وكان يصرخ هذا الصراخ ، وهو لا ينظر الى .. كان ينظر

الى لا شيء يعينين تأهتين .. والخلجة فوق شفتي العليا ترتعش
بعنف ، حتى خيل الي أنها ستتخلع من وجهه ..
ونظرت اليه في دهشة ..
فوجئت بهذه الحالة ..

ولكنني تنبعت الى اتى يجب ألا أشعره بحالته .. ان أول
مبادئ علم النفس ألا تشعر المريض بأنه مريض ، بل يجب أن
تنتظر الي أن يعترف لك بمرضه ..

وتظاهرت بعدم الاهتمام .. ثم قلت بلا مبالاة :

— أظن أن منظر الفتيات البيض أجمل ..

ثم اتجهت الى الناحية الأخرى .. ناحية بنات المستعمرين
والمهاجرين .. وتركيت سامي ورائي مركونا على جذع شجرة ،
وصدري يضج بأفاسه ..

وأخذت ألتقط بعض الصور ، وعقلي مشغول بحالة
سامي .. لقد خيل الي عند ما رفض أن يصحبني لزيارة الحى
الوطنى ، ثم عند ما رفض أن يسمح لى بتصوير البنات
الوطنيات ، انه يعطف على الوطنيين السود .. ويغار عليهم ..
ولكنني الآن أسمه يطالب بإبادتهم .. حالة عجيبة .. ورغم
ذلك فلم أكن مستعدا لبحث هذه الحالة .. اتى فى اجازة ا

وتشأغلت بالتصوير مدة تكفى حتى يستريح سامي وتهدأ
أفاسه .. ثم عدت اليه وقلت وأنا ابتسم له ، إتهامة كبيرة :

— والآن .. الى أين ؟

قال فى اختصار :

— تعود ..

ولم أعترض ..

عدنا في الطريق الطويل الذي جئنا منه .. وسامى صامت
يسير وهو ينظر الى بوز حذائه ..
ويبدو أن السير مكنه من السيطرة على نفسه ، فقد رفع
رأسه ، وقال كأنه يعتذر لى :

— ان هؤلاء العبيد يتلفون أعصابى ا

قلت وأنا ابتسم :

— لعله هذا الجو الحار الرطب ..

قال :

— لا .. انهم هؤلاء العبيد ا

وتعمدت ألا استمر في مناقشته .. فأشرت الى أحد البنايات
الحكومية التى مررنا بها وسأله عنها .. وأجابنى .. وعاد الى
طلاقة لسانه .. الى كلامه الكثير ..
وودعنى على باب الفندق ..
وواعدنى على أن يمر على فى المساء .



وفى المساء صحبني سامى الى مقهى فى الهواء الطلق على
شاطئ النيجر .. تمزف فيه فرقة موسيقية كل أفرادها من
البيض .. وتتوسطه حلبة رقص .. والمقاعد تنتشر تحت
الأشجار .. مقاعد كبيرة مريحة كأنها أعدت للنوم لا للجلوس ..

وصاحبة المقهى سيدة فرنسية سمينة ، مصبوغة الشعر ، تجلس الى « الكيس » وتنتظر الى الزبائن كأنها تفتش جيوبهم بعينها .. والمقهى اسمه « فاني » ..

وجلس سامى على المقعد المريح ، وقال وهو يتنهد :
— أتعرف .. أن هذا المقهى محرم دخوله على الزوج !
قالها كاله يملن أنه فى منطقة الأمان !

ثم بدأ يتكلم فى استرخاء .. وأنا مسترخ بجانبيه ..
ونسيت الليل الافرقى تتسلل من تحت ثيابنا وترطب أجسادنا الساخنة .. والقمر الافرقى يلقى نوره على حوافى أوراق الشجر ، فتبدو كأنها أوراق من الذهب .. الى أحسن هنا أن القمر .. قمر طيبي .. كالغابات .. كالجبال .. كنهر النيجر .. كوجوه البنات الافريقيات .. وكنت أحسن بالقمر فى أمريكا ، وهو يطل على ناطحات السحاب ، كاله قمر صناعى ..
وأخرج سامى شيئاً من جيبه ، أشبه ببذرة المانجو .. لوها أحمر مخضب بالأصفر .. وقطم منها قطعة صغيرة بأسنانه ، وضعها تحت لسانه ، وأعاد البذرة الى جيبه ..

وقلت له فى تعجب :

— ما هذا ؟

قال فى بساطة :

— كولا ..

قلت :

— ما هى الكولا ..

قال :

— ألا تعرف الكوكاكولا .. هذه هي الكولا .. وهي
تنمو هنا بكثرة ..

وأخرج الحبة من جيبه ، وقال وهو يناولها لى :

— جرب !!

قلت وأنا أقلب الحبة بين أصابعى :

— ما مفعولها ..

قال :

— منشطة .. الزوج الأغبياء يمتقدون أنها منشطة
للنواحي الجنسية .. لأنهم حيوانات .. ولكن الواقع أنها
منشطة للذهن .. فقط !

وقطعت من الحبة قطعة صغيرة ..

ان طعمها مر ..

مرارة تشق اللسان ..

وبصقتها توا من بين شفتى .. وأنا أنظر الى سامى كالى

أسأله كيف يتحمل مرارتها .. ثم قلت :

— هل يدمنها الزوج ؟

قال :

— نعم ..

ثم بسرعة انطلق كأنه أخطأ :

— كل الناس يأكلونها هنا !

وأخذنا نتحدث عن الكولا .. وأنا أقارن بينها وبين القات

الذى يدمنه أهل اليمن .. وفجأة .. رأيت سامى يعتدل في
جلسته .. وتفتح عيناه في ذعر .. وهو ينظر بهما لاحية الباب ..
وهذه الخلجة فوق شفته العليا تبدأ في الارتعاش ..
وتبعت عينا سامى المذعورتان .

فتاة زنجية دخلت من الباب ..

لعلها في التاسعة عشرة .. قوامها فارح .. ممتلئ .. ترتدى
الزى الوطنى وإبتسامتها حلوة تخلع القلب .. وعيناها تضيئان
وجهها بشعاع قوى من النور ..

واتجهت الفتاة اليها .. وثاقلت خطواتها وهي تمسح من
أمامها .. وألقت الى سامى بإبتسامة كبيرة .. ونظرة تضعج
بالنور .. ثم اتسعت خطواتها واستمرت في سيرها .. الى أن
خرجت من الباب الآخر للمقهى ..

والخلجة فوق شفة سامى العليا ، ترداد ارتعاشا .. تكاد
تتفصل عن وجهه .. وعيناه تبرقان بريق مذعور .. وألفاسه
بدأت تتهدج .. وقطرات من العرق بدأت تنبثق فوق جبينه ..
وهو متشبث في مقعده بكلتا يديه .. كأنه خائف .. كأنه
يقاوم ..

ثم قال في صوت محرج دون أن ينظر الى :

— عن اذلك ..

وقام قبل أن أجيئه ..
وقبع الفتاة ..



وإنتظرت أن يعود سامي ..
انتظرت حتى منتصف الليل ..
ولم يعد ..

.. تركت مقهى « فاني » وعدت الى الفندق ، وكل عقلي مشغول بدراسة شخصية سامى .. أصبحت شخصيته أمامى ، كمشكلة حساية عريضة .. مثيرة .. وبدأت مهنتى كطبيب نفسانى ، تغلبنى .. انها ليست مهنة فحسب ، انها هواية أيضا .. ووجدت نفسى أبتعد عن اهتمامى بأواسط أفريقيا ، وأركز كل ذهنى فى حل المشكلة التى صادفتنى .. بل أحسست ألى لو اكتشفت سر سامى ، فكأنى اكتشفت أكبر أسرار افريقيا .. وفى الفندق فتحت نوتة مذكراتى ، وكتبت فيها : « زارنى اليوم مهاجر لبنانى اسمه سامى الداعوق .. مرتبك الشخصية ، الى حد يدفعنى الى دراسته » ا

ثم طويت نوتة المذكرات وبدأت أنام ، والملاحظات التى التقطتها عن سامى تمر أمامى كشريط سينمائى .. كلامه الكثير .. وطريقة مشييه وهو لا يرفع عينيه عن بوز حذائه .. ثم تضارب عواطفه نحو الزوج الوطنيين .. أحيانا يبدو كأنه يغار عليهم من الأجانب .. وأحيانا يطالب بآبادتهم ويسميهم عبيدا متوحشين .. ثم هذه الرعشة السريعة العنيفة التى ترتعش بها خلجة وجهه فوق شفته العليا ، والتى أصابته وأنا أحاول أن



ألتقط صورة للنساء الوطنيات .. ثم أصابته مرة ثانية عند ما
دخلت المقهى هذه الفتاة الزنجية ، ونظرت اليه ، فقام وراءها
ولم يعد .. و ..

ونمت .. والشريط السينمائي لا يزال يدور في عقلى ..
وفي الصباح الباكر .. فى الساعة السادسة والنصف ..
فتحت عيني على طرقات عنيفة على بابى ..
ودخل سامى ، يصيح كمادته بلهجة اللبنانية ، وكل حرف
يلا شديقه :

— ألا زلت ناعسا يا دكتور .. ان باماكو تبدأ الحياة فى
الساعة الخامسة ..

والطلق فى الكلام ..
ولكنه لم يحاول أن يعتذر عما حدث منه ليله أمس .. لم
يعتذر عن تركى فى المقهى دون أن يعود الى .. بل لم يحاول
اطلاقا أن يتحدث عن ليلة أمس ..
ودقت النظر فى وجهه .. ان وجهه باهت .. وعينيه
مكدودتان ، تعبتان .. رغم الايتسامة الكبيرة التى يحاول أن
يحتفظ بها بين شفتيه .

ثم ..
فى رقبته خدش رفيع .. يبدو أنه خدش من ظفر حاد ..
وتوقفت عيناي على هذا الخدش .. وبحركة لا ارادية ،
رفع سامى كفه ، ومسح به على الخدش .. كأنه يحاول أن يخفيه

عنى .. أو كأن نظرتى قد لسعته .. ولكنه لم يقل شيئاً عن هذا
الحدث .. استمر فى كلامه الكثير المبعثر ، ثم قال :
— آسف يا دكتور .. لن أستطيع أن أرافقك اليوم
عندى عمل كثير فى المحل .. ولكنك مدعو عندنا على الغداء ..
أخى سليم يريد أن يراك .. يريد أن يشم فيك رائحة مصر .
و أنا أكره الدعوات .. وخصوصاً الدعوة الى الغداء .. ولا
شئ يفسد الرحلات الا قبول الدعوات .. ومنذ خرجت من
مصر ، وأنا أرفض كل دعوة توجه الى .. سواء كانت دعوة من
السفير ، أو من صديق عابر .. ورغم ذلك فالى لم أستطع أن
أرفض دعوة سامى .. كنت أريد أن أعرفه أكثر .. كنت أريد
أن أكتشفه لأحس أنى أكتشفت شيئاً فى افريقيا .. وكنت
ملهوفاً على أى خطوة تقربنى اليه ..
وتركت سامى يلح على قليلا ، ثم قبلت الدعوة .. واتفقت
معه على أن تتقابل الساعة الواحدة بعد الظهر فى بهو الفندق .
وقال سامى وهو واقف عند باب الغرفة :
— أين ستذهب الى أن تتقابل ؟
قلت بلا مبالاة :
— سأتجول فى المدينة ..
قال فى تردد :
— هل ستذهب الى ...
وقطع كلامه فجأة ، وقال وبين شفثيه ابتسامة مفتعلة :
— أخشى عليك أن تتوه ..

قلت في بساطة :

— لا تخف ..

وخرج وأنا أفكر وراءه ..

ماذا كان يريد أن يسألني .. هذا السؤال الذي لم يتمه !!
هل كان يريد أن يسألني ، اذا كنت سأذهب الى الحى
الوطنى ..

ربما ..

لقد رفض أمس أن يصحبني لزيارة هذا الحى .. رفض
بحدة .. ولعله لا يريدنى أن أذهب اليه وحدى ..
لماذا ؟

واتسمت دائرة الغموض أمامى .. ولكنى تعلمت أن أمنع
نفسى من التفكير وراء هذا الغموض .. منعت نفسى من محاولة
استنتاج أى شىء .. ان من مصالح الطبيب النفسى دائماً ألا
يستنتج شيئاً الا من خلال ما يدلى به مريضه ، حتى لا يؤثر
استنتاجه الشخصى فى تحليل أقوال المريض ..

وكتبت يومها فى مذكراتى : « رأيت خدشا حديثا فى رقبة
سامى .. ماذا حدث ليلة أمس ، بينه وبين الزنجية الصغيرة ؟ »
ثم ارتديت ثيابى .. القميص والبنطلون ..

ووضعت على رأسى هذه القبعة البيضاء الكبيرة المصنوعة
من القلين التى كان يرتديها الرحالة استاقلنى عند ما اكتشف
افريقيا .. ونزلت الى بهو الفندق حيث تناولت افطارى .. ثم

خرجت أطوف مرة ثانية بشوارع مدينة باماكو ..

ولم أقرب من الحى الوطنى ..

لقد فكرت فعلا فى أن أتجول فى الحى الوطنى .. ولكنى لم أفعل .. ربما لأن اهتمامى بتحليل شخصية سامى ، جعل للحى الوطنى رهبة مثيرة تدفعنى الى أن أتردد فى الذهاب اليه .. وربما لأنى كنت أريد أن أكتشف الحى الوطنى من خلال اكتشافى لسامى .. كنت معتقدا أن التجول فى قسبة سامى ، هو بمثابة التجول فى أعماق أدغال افريقيا ..

وقادنى الشوارع الطويل الذى يشق الحى الأجنبى فى باماكو ، الى كويرى طويل مقام فوق نهر النيجر .. كويرى أطول بكثير من كويرى قصر النيل .. وسرت فوق الكبرى ، ونهر النيجر يزأر زئيرا مكتوما تحت أقدامى .. ومياهه الثقيلة السمراء ترتطم بشواطئه المتوحشة ، فتثير فى الرهبة .. والخوف .. والتردد .. أحس كأن كل خطوة تقربنى من مفاجأة مثيرة .. وقطرات العرق بدأت تنزف من جبينى .. والجو الحار الرطب يكتم أنفاسى .. وقميصى يلتصق بلحمى ، ويبدو كأنه قميص مغسول ، منشور فوق أكتافى .. وأنا سعيد .. سعيد بأحاسى بآنى فى أواسط افريقيا !!

ووصلت الى نهاية الكويرى تعباً .. ركبتاى بدأتا تنهاران من تحتى .. وصورة الرحالة ستانلى تهتز أمام عيني .. لو كنت أنا الرحالة ستانلى ، لما اكتشفت أفريقيا حتى اليوم !! وعلى اليسار .. يسار الكويرى .. مساحة كبيرة من

الشاطئ» مغطاة بصخور سوداء ملساء .. صلدة .. متجهة ..
وتلتف في نهايتها حول مساحة من الرمال البيضاء الناعمة ،
غرست فيها مجموعة من التماسي الملونة ، تبدو على مدى البصر
كأنها بالونات أطفال ..

وتذكرت ان سامي قال لي ان المستعمرين البيض أقاموا
على شاطئ» النيجر ، بلاجا .. مخصصا لهم .. أجل من بلاج
ميامي ، الذي قرأ عنه في المجلات المصرية ..
لايد أن هذا الذي أراه ، هو بلاج البيض ..
وانجبت اليه ..

كنت من غرط تسبي أريد أن أعود .. ولكن هذه القوة
الدافقة التي تشدني لأستطلع كل شيء .. لأرى كل شيء في
افريقيا .. شئت ركبتى المنهاتين .. وأخذت أقفز فوق الصخور
السوداء بصعوبة .. وقدمي تكاد تنزلق في كل خطوة ..
وقيل أن أصل الى مجموعة التماسي الملونة ..
وفجأة ..

قفزت من وراء الصخور فتأتان وطنيتان ، كل منهما ملتفة
فوق جسدها العساري بقطعة من القماش المبلول .. وأحد
لهديها يبرز منطلقا شامخا من فوق حافة قطعة القماش .. كانه
يرفض الأمر .. يرفض أن يختبئ عن النور . والفتاتان
تجريان في مرح .. احدهما تشد الأخرى من يدها ..
وتضحكان .. ضحكات رفيعة لها رنين ، كضحكات المصافير ..

ووقفت أتبعهما بعيني ، وأبتسم في مرح .. كأني أرى الطبيعة
تلهو وتضحك ..

ومرتا من أمامي ..

ثم عادتا الى .. عادت الفتاة التي في المقدمة ، وهي تشد
الأخرى وراءها .. وضحكاتهما تسقط فوق الصخور فيزداد
رفينا ..

ووقفت الفتاة الأولى أمامي ، تنظر الى في جراحة مرحة ،
والنور ينطلق من بياض عينيها فيضيء وجهها كله .. والفتاة
الثانية مخبئة وراء ظهرها ، تحاول أن تكتم ضحكاتها ..
ورفعت عيني عن نهد الفتاة المنطلق في وجهي .. كنت حديثا
في افريقيا .. لم أكن قد تعودت بعد على منظر النهود العارية !!
وركزت عيني على وجهها ..
وشهقت ..

انها نفس الفتاة التي دخلت مقهى « فاني » ليلة أمس ..
وقام وراءها سامي .. ولم يعد !!

ويبدو أنها لم تعرفني .. يبدو أنها لم تلمحني أمس وأنا
جالس مع سامي .. انها تنظر الى كأنها لم ترني من قبل ..
وتكلمت الفتاة في لغة فرنسية غريبة ، تخرج من بين شفثيها
كأن هناك انسانا آخر يجلس في حلقها ويتكلم .. انسان أبيض
.. وقالت وهي تكتم ضحكاتها ، وتحاول أن تشد صديقها من
خلف ظهرها :

— هل تشتري أختي ؟ !!

وفوجئت بالسؤال ..

لا بد أنها لا تهصد ما تقول .. انها مجرد مداعبة .. نكتة ..
ولكن النكتة لها دائما أساس من الحالة الاجتماعية .. ولذلك
تختلف النكتة في كل مجتمع عن الآخر .. وهذه المداعبة التي
تطلقها الفتاة ، تعبر عن جذور قديمة في المجتمع الافرقي ..
وبقيت برهة أنظر في عينيها ، أحاول أن أفهم سؤالها ..
وعادت تقول :

— انها رخيصة .. أربعة فرنكات فقط !

وابتسمت ، وقلت لها .. أبادلها المداعبة :

— اني مستعد أن أشتريك أنت ..

وضحكت ضحكة كبيرة .. ورئين ضحكتها يسقط فوق
الصخور فيتردد له صدى كمرح الملائكة ..
وقالت :

— لا .. أنا غالية !!

قلت :

— لماذا .. لماذا أنت غالية ؟

قالت :

— لأنى كبيرة .. وجميلة .. انظر ..

ورفعت الى وجه صديقتها .. أو لعناتها أختها فعلا .. رفعت
بالتقوة وهى تضحك ، والأخرى تقاومها وتضحك أيضا .. ثم
قالت :

— انظر جيدا .. ألسنت أجمل منها .. بكثير .. أليس كذلك ؟

وأحسست بارتباك يصهر وجهي .. فليست متعودا على مغازلة البنات .. وعمرى لم يعد يليق بهذا الموقف .. عمر الثانية والخمسين ..

قلت وأنا أبتلع ارتبأكى :

— انى مستعد أن أدفع أى ثمن لأشترك .

وعادت تضحك ضحكتها الكبيرة ، وقالت :

— لا أظن أن كل ما معك ، يكفينى ..

ثم شللت أختها ، وهمت أن تجرى بها من أمامى .. فصحت :

— لحظة من فضلك ..

والتفتت الى فى تعجب .. وابتسامتها تفرح فوق أسنانها البيض .. وقالت فى اختصار :

— ماذا تريد ؟

قلت ، وأنا أنظر بكل عينى فى وجهها :

— هل رأيت سامى اليوم ؟

وفجأة ..

اختفت ابتسامتها ..

اختفت أسنانها البيض ..

وتجههم وجهها ..

وتهدج نهدها العارى ، كأنه يهم بالبكاء ..

ونظرت الى طويلا .. في نظرتها مسخط تصبه على .. وكراهية
تحاول أن تخنقني بها .

ثم تركت يد أختها .. ودون أن تتكلم .. جرت من أمامي ..
ولهدها يجرى أمامها .. وأختها تجري وراءها .

ووقفت أتبعهما ، وأنا أحاول أن أكتشف شيئا جديدا ،
من خلال هذا التجهم الذي أصابها بمجرد مجاعها لاسم سامي ..
لقد كان سؤالي مقصودا .. كنت أقصد مفاجأتها به لأرى
انعكاس المفاجأة عليها .. ولأكتشف من هذا الانعكاس حقيقة
نوع العلاقة التي تربطهما .. علاقة بسيطة عابرة .. مجرد علاقة
رجل بامرأة اختلف لولهما .. أم علاقة مركبة .. علاقة أعمق من
ذلك .. وأكثر جدية ..

لا شك أنها علاقة عميقة .

ولكن ..

ما مدى عمقها ..

وما سر عمقها ..

لست أدري ..

وجلست فوق الصخور .. أستريح .. وأفكر ... ووجه
الفتاة السراء معلق في خيالي .. إنها جميلة .. أجمل مما كنت
أعتقد أو أتصور .. أن هذه الوجوه الأفريقية ، أشبه بالليل ،
لا تستطيع أن ترى ما فيه إلا بعد أن تعود عيناك على النظر
فيه .. وعند ما تستطيع أن ترى في الليل ، تكتشف ما فيه من
جمال .. تكتشف أنه أجمل بكثير من الوجوه البيضاء .

والتفت الى حيث يقع « بلاج البيض » الذى تنتشر فيه
الشماسى الملونة .. لا يزال بينى وبينه مسافة طويلة .. ونظرت
فى ساعتى .. الثانية عشرة .. ياه .. لقد مرت على قدمى أكثر
من ثلاث ساعات .. ولن أستطيع أن ألحق بموعد سامى اذا عدت
ماشيا ..

وقمت واقفا .. ووسعت خطواتى وألأ أقفز فوق الصخور ،
عائدا الى كوبرى النيجر .. ووقفت عند مدخل الكوبرى ..
أبحث عن سيارة ، أو عن عربة ، تحملنى الى الفندق لألحق
بموعد سامى .

ومرت سيارة كبيرة .. لورى .. يقودها سائق وطنى ..
فأشرت اليه ، ووقف .. وطلبت منه أن يوصلنى الى الفندق ..
لطقت اسم الفندق فقط ، ليفهم ما أعنيه .. وفهم وحرك أمامى
أصبعيه .. وفهمت .. أنه يطلب فرلكنين أجرا له ..
وركبت بجانبه ..

وطول الطريق وهو يردد كلمة باللغة الوطنية ، لا أفهمها ..
ولكنه يرددتها فى مسخط وفى قرف ..

ثم بدأ يردد بالفرنسية كلمة : مطر .. مطر .. مطر !
ويرفع يده ويخبط بها على عجلة القيادة ، ثم يمود يردد
كلمة : مطر .. مطر .. مطر !

ولما وجدنى لا أعلق بشيء على الكلمة التى يرددتها ، التفت
الى ، ينظر الى بعينين واسعتين ، يياضهما تجرى فيه عروق
حمراء غامقة .. وقال كآله يشور على :

— أتدري ماذا يعنى المطر .. يعنى أنى لن أشتغل ..
مستد الأمطار جميع الطرق .. ويستعنى عنى صاحب السيارة
.. وأجوع .. وأولادى يجوعون .. ان موسم الجوع بقى عليه
أسبوعان ..

ولم أرد عليه ..

خفت أن أخطئ فى اختيار الرد ، فيثور أكثر ..
وعاد يخط على عجلة القيادة بكفه ، وهو يردد : مطر ..
مطر .. مطر ..

وأنا جالس بجانبه ، متشبث بمقعدى .. أكنم الخوف فى
صدرى .. الخوف أن يعطم السيارة ، ويعطم نفسه ، ويعطمنى
.. قبل موسم المطر .. موسم الجوع !
ونزلت من السيارة قريبا من الفندق ..

ووجدت سامى ينتظرنى على السلم الخارجى ونظر الى فى
رب عجيب ، وسألنى كأنه يحقق معى :

— أين كنت يا دكتور ؟

قلت :

— سرت حتى الكوبرى ..

قال وهو ينظر فى وجهى بامعان :

— هل رأيت شيئا جديدا ؟

قلت وأنا أنظر فى وجهه حتى لا يكتشف كذبنى :

— أبدا .. نفس ما رأيته أمس .. خفت أن أنصرف عن

الطريق الذى أعرفه ، فأثوه !

وابتسم سامى فى راحة .. وقال :

— لنذهب الى البيت ..

قلت :

— ألا نستريح قليلا ؟

قال فى لهجة جادة :

— لا .. لا .. أخى سليم ينتظرنا !

قالها كأن أخاه سليم ، أعظم رجل فى العالم ، ولا يصح أن

لدعه ينتظرنا ..

وهزئت كفى فى استسلام ..

وفهبت معه ..



وبيت سامى .. شقة فى عمارة صغيرة ، مكولة من دورين ،

يرتفعان فوق دكان كبير ، يباع فيه كل شيء .. قطع غيار ..

وأقمشة .. ودقيق .. ومسود البناء .. وحلوى .. و .. و ..

وتصعد الى الشقة من سلم يقع خلف هذا الدكان الكبير ..

وكل العمارات فى باماكو بناها المهاجرون اللبنانيون

والسوريون .. ولذلك فهم يسمون فى كل بلاد افريقيا ،

بالمعمرين .. لأنهم يعمرون كل بلد ينزلون فيه .. ولكن يبدو

أن المهاجرين كانوا يعتمدون على أنفسهم فى الرسوم الهندسية

التي يبنون عليها العمارات .. فكل العمارات .. خصوصا

العمارات القديمة .. عجيبة فى هندستها .. لا تعرف كيف تدخل

فيها .. ولا كيف تخرج منها .. وقد قادني سامي الى خلف
الدكان الكبير .. وصعدنا .. ثم تفرع السلم الى سلمين .. ثم
دخلت في ممر .. وانصرف الممر دون أن أدري سبب انحرافه ..
ثم دخلت في باب .. ووجدت نفسي في مطبخ ، يقف فيه شاب
وطني عاري الصدر .. يرتدى بنطلونا قصيرا .. ثم خرجت من
المطبخ لأجد نفسي في صالة ..

والأخ سليم واقف يستقبلني !
انه لدهشتي ، أصغر من سامي .. ان الطريقة التي كان
سامي يتحدث بها عن أخيه أقنعتني أنه أكبر منه .. أقنعتني أن
سليم هو رب العائلة .. ولكنه يبدو أصغر .. لا يمكن أن يتجاوز
الخامسة والعشرين من عمره ..
ورغم ذلك ، فهو يبدو كأنه رب العائلة ..
انه صارم التقاطيع ..
جاد النظرات .

لا يتسم .. لا يتسم إطلاقا ..
لقد استنتجت توا ، أن سليم هو الأخ الذي يحمل
مسئولية ادارة تجارة الأسرة .. وأنه يحمل هذه المسؤولية وهو
يعلم أنه يحملها .. ويطالب أخاه بضمن حملها .. يطالب
بالسيطرة .

وأجلسني سليم على أريكة في الصدر وجلس بجانبى .
بينما جلس سامي على مقعد بعيد ، كأنه يتأدب أمام أخيه ..
أخيه الأصغر !

وطاف الحديث بيننا .. حديثا عاديا .. وسليم يكثر من
الشكوى من قسوة العمل في ياماكو .. ويحسد بقية المهاجرين
في دكار .. وفي كوناكري .. وفي بقية بلدان افريقيا .. وهو
في حديثه عن قسوة العمل يحاول دائما أن يبرز المجهود الكبير
الذي يقوم به ..

وفتح باب جالبي ودخلت فتاة بيضاء ..
وأشار سليم اليها وهو جالس ، وقال في لهجة أقرب الى
الاحتقار :

— أختي سامية ..

وقمت واقفا أصافح سامية .. انها ضعيفة .. وجهها باهت
.. يياضها ليس فيه لون الدم .. وخطوط كثيرة فوق جبينها ،
وحول عينيها .. انها تبدو كأنها امرأة عجوز ، لولا بريق خافت
من الشباب يبدو في عينيها ..

وجلست سامية على مقعد بعيد آخر في مواجهة سامي ..
ونكست رأسها ، ووضعت يديها في حجرها ..
وقلت وأنا أجلس بجانب سليم :

— سامي .. وسليم .. وسامية .. لا بد أن الوالد كان
يتعامل بحرف السين !!

وقال سليم وهو يقلب شفتيه في قرف ، كأنه يسخط على
ذكرى أبيه :

— لقد اعتمد الوالد على حرف السين ، لدرجة أنه مات
منفلسا .. تركنا لا نجد ثمن الرغيف .

ورفع سامى رأسه ونظر الى أخيه وعيناه تبرقان فى غضب .. ولح سليم نظرتة فواجهه بنظرة أقوى منها .. وما لبث سامى أن ألقا نظرتة ، ونكس رأسه وهو يهزه هزات بطيئة ، كأنه يزوم .. كأنه يمزق شيئا فى داخله .. ولاحظت كل ذلك ، وسكت ..

ثم قلت لسليم وأنا أحاول أن أخفف من هذا الجو القاتم الذى يحيط بى :

— أعتقد أنك أصغر من سامى ..

وهز سليم كتفيه ساخرا ، وقال :

— نعم يادكتور .. أنا الأصغر .. أصغر من سامى وأصغر من سامية ..

ثم التفت الى سامى ، وقال :

— أليس كذلك يا سامى ..

وهز سامى رأسه فى صمت ..

وعاد سليم يقول لى ، وهو يشير الى أخيه ، ثم يضرب بكفه على ساقه :

— حضرتة أديب .. أديب كبير !

وسامى ساكت ..

وسامية رأسها منكس ، ويداها فى حجرها .

والحديث يدور بينى وبين سليم فقط ..

ثم صرخ سليم :

— لماذا لم ينته هذا الخيران من اعداد الطعام ..

ثم التفت الى قائلا :

— عن اذلك ..

وقام وخرج من الغرفة .. واستتجت أنه ذهب الى المطبخ
ليشرف على الحيوان الذى يعد الطعام ..

وبجرد أن خرج سليم ، رفع سامى رأسه وقال لى فى غضب
هامس :

— أبى لم يمت مفلسا .. أبى كان أشعر شعراء المهجر ..
كانت مجلات لبنان تنشر قصائده .. بل انه كان يصدر فى لبنان
مجلة أدبية .. كان رجلا عظيما .. ولكن أخى سليم يكرهه ..
كان دائما يكرهه .. صدقتى .. أبى كان رجلا عظيما .. سأريك
المجلات التى كانت تنشر صورته وقصائده .. مجلات لبنان !
ثم قام الى دولاب قديم فى ركن من الصالة ، وأخذ يحاول
فتحه ..

وقامت سامية من مقعدها .. وتقدمت منى فى خطوات ليس
لها صوت .. كأنها تسير على أطراف أصابعها .. وقالت فى صوت
هامس كأنها تطلعنى على سر :
— هل زرت لبنان ..

فقلت وأنا أنظر فى وجهها لعلى أعرف سرها :

— نعم .. كثيرا ..

قالت وهى لا تزال تهمس :

— أذا زرت لبنان .. قضيت هناك ثلاثة شهور .. كانوا
يقيمون هناك المآدب لأبى .. و .. و .. كنت فى العاشرة من
عمرى ..

ولم تقف سامية عندما قالت انها كانت في العاشرة من عمرها
عندما زارت لبنان .. ولم تنتهد .. قالتها كأنها تتحدث عن شيء
حدث بالأمس القريب .. كأنها تستطيع فعلا أن تتذكر ما رآته
وهي في العاشرة من عمرها .. أو كأنها لا تزال تعيش في عمر
العاشرة ..

وقطعت سامية حديثها عن لبنان فجأة ، وقالت هامسة :
— هل تعرف الأستاذ عبد الوهاب ..
وأجبتها هامسا حتى لا أفسرها بأنها تهمس :
— اله صديقي ..

قالت :
— لقد كان صديق أبي .. هل تعرف ليلي مراد ؟
قلت :

— نعم ..
قالت هامسة :
— انها تغنى ..
ولم ترد .. قالتها كأنها تبلغنى خبرا خطيرا ، وهو أن ليلي
مراد تغنى !

وفجأة ارتفع صوت صفعات من المطبخ .. صفعات عنيفة ..
وصوت سليم يصرخ بكلام لا أستطيع أن أتييه ، أو أفهمه ..
وذعرت سامية .. وابتعدت عنى مريعا بخطواتها الهامسة ..
وجلست في مقعدها .. ونكست رأسها .. ووضعت يديها في
حجرها ..

واتصّب سامى واقفا بجانب الدولاب الذى يحاول فتحه ..
ونظراته يشع منها برق عجيب .. وهذه الخلجة فوق شفتيه
العليا ترتعش .. وأفامه تهديج .. وقال كآله يعاثر نفسه :
— اله يضربه .. يضربه مرة ثانية .. اله يضربه ..

وظل واقفا مكانه يرهة وهو يضغط على حافة الدولاب
بقبضته .. وجسده يرتعش .. كآله يقاوم .. يقاوم شيئا عنيفا
قاسيا ..

وعاد سليم اليها وهو يقول :

— آسف يادكتور .. هذا الحيوان لا يستطيع أن يفهم ..
اله حيوان .. تصور .. يجب أن ألهو الطعام بنفسى اذا أردت
أن أكل شيئا لطيفا ..

ثم التفت إلى أخيه سامى .. ولما رآه واقفا فى حالته هذه ..
قال له فى لهجة آمرة ، كآله تعود عليها :
— اجلس .. لا تقف هكذا ..

وعاد سامى صاغرا إلى مقعده ..

وجلس سليم بجانبى ، وقال بلا مقدمات :

— لقد أخبرنى سامى أنك دكتور قصالى .. هل معنى
ذلك أنك تشفى الجنون ..

قلت وأنا أحاول أن أبدا بسيطا ، كآلى لم أر شيئا فى هذا
البيت يثير اقتباهى :

— ليس كل أنواع الجنون ..

قال وهو ينظر إلى فى غباء :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— ان الدكتور النفسالى هو الوحيد بين دكاترة الأمراض ،
الذى لا يشفى المريض .. ولكنه فقط يساعد المريض على
الشفاء ..

وعاد ينظر الى فى غباء ..

ثم نظر الى أخته سامية .. ثم التفت الى قائلا .. بلا مقدمات
أيضا .. والأمارات الحادة تملأ وجهه :

— هل تحب أن تسمع أم كلثوم ؟

ورفعت سامية رأسها بغتة ، وفى عينيها خوف غريب ..
وتوسل غريب أيضا ..

وقال سامى فى حدة :

— لا .. لا .. لا أحد يريد أن يسمع أم كلثوم ..

ونظر اليه سليم نظرة صارمة ، وقال له فى لهجته الآمرة :

— امسكت ..

ومسكت سامى وهو يضغط احدى يديه بالأخرى فى حركة
عصية ..

وهمت سامية بالقيام .. فصرخ فيها سليم :

— اجلسى مكانك ..

ورفعت اليه يديها الباهتتين ، وقالت فى توسل :

— أرجوك .. أرجوك يا أخى .. أرجوك يا سليم !
وعاد يصرخ فيها :

— اسكتى ..

ثم قام وأخرج من جيبه حزمة مفاتيح وفتح الدولاب ..
نفس الدولاب الذى كان يحاول سامى أن يفتحه .. وأخرج منه
اسطوانة .. وضعها فى جرامفون قديم ..

وسامية ترتعش ..

وانطلق صوت أم كلثوم تغنى : غلبت أصالح فى روى ..
وتجمدت سامية فى مكانها ..

رفعت رأسها .. وتاهت نظراتها فى الفضاء ..

وسامى لا يزال يضغط احدى كفيه بالأخرى فى حركة
عصية ..

وسليم ينظر الى أخته فى قسوة ..

وبدأت الدموع تنبثق من عيني سامية ..

وأنا أنظر اليها ، كأنى أنظر من خلال ميكروسكوب ..

وانهمرت دموع سامية ..

صوت أم كلثوم ينساب .. كأنه ينساب دموعا على خديها ..

ثم بدأت تنشج بالبكاء .. ثم ازداد نحيبها .. وبدأت ترتعش ..
ثم صرخت ..

صرخة حادة .. كأنها لفظت قلبها مع صرختها ..

وقامت تجرى الى داخل البيت ، وهى تتعثر فى قطع الأثاث ..

وأسكت سليم الجرامفون ..

ونظر الى دون أن يتكلم ..

ووضعت عيني في عينه ، وقلت في بساطة كأن كل مشاهدته
لا يثير اهتمامي :

— ما لها الآفة سامية ؟

ونظر الى في دهشة ، كأنه صدم يرودي . وقال :

— هذا ما أريدك أن تعرفه .. أنت دكتور ا

وضحكت ، ضحكة صغيرة ، وقلت :

— دكتور في أجازة .. أرجو لو كانت الإنسة سامية تعاني

أى حالة ، ألا تعتمد على في علاجها ..

ونظر الى في حدة ، وقال وهو لا يستطيع أن يتخلص من

لهجة السيطرة :

— سنتكلم فيما بعد .. والآن .. تناول الغداء .

ثم صرخ ينادى على الطباخ :

— ممدو ..

وجاء « ممدو » يحمل أطباق الطعام ووضعها على المائدة

الحشوية العتيقة التي تتوسط الصالة ..

كانت ألوان الطعام كلها لبنانية .. تبولة .. وكبيبة ..

وسلاطة

وقال سليم ونحن نجلس على المائدة :

— لقد علمت هذا الحيوان كيف يطهو الأطباق اللبنانية ..

ولكن لا فائدة .. انه حيوان ..

ثم مد ملقته ، وأكل من طبق التبولة .. ورفع رأسه ،

وانهال على « ممدو » بالشتائم .. شتائم باللغة الفرنسية ؟

ودق سامى قبضة يده على المائدة كانه لم يعد يطيق ،
وصرخ فى وجه أخيه :

— كفاية .. لا تشتمه .. انك أنت الذى تصر على أن تجعل
منه حيوانا ..

ولم يتحرك سليم لثورة أخيه ..
وقال وهو يعد مملقته مرة ثانية فى طبق التبوله :
— اسكت ..

وسكت سامى فعلا ..
وأكلت بسرعة .. كنت قد تعبت من هذا الجو القافض ..
تعبت حتى من أنى طيبب قفصانى ..
وامتأذلت فى الانصراف ..
وقال لى سليم وهو يودعنى :
— متى أراك .. انى فى حاجة اليك ..
قلت فى برود :

— اتصل بى فى الفندق لتحدد موعدا ..
وتركنه بسرعة ، كانى أمرب من ضيق يبحم على صدرى ..
وسار ملى سامى ليصبحنى حتى الفندق ..
لم يتكلم .. كان ينظر الى بوز حذاءه ولا يتكلم ..
وأنا أنظر اليه بين الحين والحين .. وأحس بشسقة كبيرة
عليه .. ولكن لا أحاول أن أجره الى الكلام ..
وعندما وصلنا الى الفندق ، قال فى صوت ضعيف :
— أنا آسف .. لعلنا أتميناك بهذه الدعوة .

قلت :
— أبدا .. لقد قضيت وقتا سعيدا .. ولكنى متعب ..
قال في تردد :
— هل أراك في المساء .. ان باماكو تبدو دائما جميلة في
المساء ..
قلت وأنا ابتسم له :
— اتفقنا .. مر على الساعة الثامنة ..
وتركته وصحلت الى فرقتى ..
كانت الساعة الخامسة .. وكنت متعبا فعلا .. حاولت أن
أسجل ملاحظاتي في مذكراتي فلم أستطع ..
نمت ..



وصحوت في الساعة السابعة .. وارتديت ثيابى .. البنطلون
والقميص أيضا .. وولت الى بهو الفندق أتناول الشاي ،
وأتظر سامى ..
ومرت الساعة الثامنة ، ولم يحضر سامى .. التاسعة ، ولم
يحضر ..
العاشرة ، ولم يحضر ..
وابتسمت ..
ابتسمت لأنى فعلا كنت أريد أن أرى سامى .. وكنت
أتظره بلهفة .. لهفتى على أن أكتشف سرا من أسرار افريقيا ..

وهذه هي المرة الثانية التي يخلف فيها مواعده معي .. وتخيّلته
كأسد يراوغني قبل أن أسطاده .. ولهذا ابتسمت !
وصعدت الى غرفتي ، وقد قررت أن أقرأ كتابا ..
وما كنت أقرأ بضع صفحات ، حتى سمعت طرقات عنيفة
على بابي ..

لا بد انه سامي ..

ونظرت في ساعتى .. الحادية عشرة والنصف ..

وقمت وفتحت الباب ..

انه ليس سامي ..

انه سليم ..

وصرخ سليم في وجهي :

— أخى يا دكتور .. سامي أخى .. انه مجنون .. مجنون ..

أرجوك يا دكتور .. أسفنا ..

قلت :

— ماذا جرى له ..

قال :

— لن أستطيع أن أصف لك .. متري بعينيك .. أرجوك ..

تعال معي !

قلت :

— الى أين ؟

قال :

— هناك .. فى الغابة القريبة .. انه مجنون .. مجنون ..
وارتدبت ثيابى بسرعة ..
وهمت أن أخرج مع سليم ، ثم عدت سريعا ، والتقطت
حقيبتى الطبية الصغيرة ..
وخرجت .. وسليم يصيح بجانبى :
— انه مجنون .. مجنون ..

وقفز سليم الى مقعد القيادة في سيارة « بيجو » فرنسية ،
عتيقة .. وهو يصيح :

— أسرع يا دكتور .. أرجوك .. أسرع .. الحالة خطيرة !
ولحقت به ، وجلست بجانبه .. وقاد السيارة بسرعة مجنونة ،
حتى اضطرت أن أتشبث بحافة الباب بكلتا يدي .. ولم أحاول
أن أنصحه بأن يهدى من السرعة .. كنت أعلم أنه في حالة
لا يجدى معها النصح ..

واستسلمت وأنا أحاول أن أجمع في ذهني خطوط هذه
العائلة الغريبة التي التقيت بها مصادفة في مدينة باماكو .. في
قلب افريقيا ..

سامي .. الأخ الكبير الذي يحنى رأسه أمام أخيه الأصغر ،
ولا يستطيع أن يرفع صوته في مواجهته ، ولا أن يواجهه بعينه ..
والذي يهتز وتنتابه حالات متناقضة غريبة كلما جاء ذكر الزوج
الوطين ..

وسامية الأخت الكبيرة ، التي لا تزال تعيش في ذكرى

زيارتها للبنان عندما كانت في العاشرة من العمر .. والتي تبكى ،
ثم تصرخ في جنون ، عندما تسمع صوت أم كلثوم ..
وسليم .. الأخ الأصغر .. الجاد الصارم ، الذى يبدو قاسيا ،
مكروها .. والذى لا يخضع لارادة أخيه الأكبر منه ، وأخته
الأكبر منه أيضا .. ويضرب خادمه الزوجى ..

والأب الذى مات .. ولا أدري متى مات .. والذى يقول ..
عنه سليم انه كان فاشلا .. ويقول عنه سامى انه كان رجلا
عظيما ، وأديبا كبيرا ، تنشر المجلات اللبنانية صورته ..
ولم أستطع أن أربط هذه الخطوط بعضها ببعض ..
ولم أحاول أن أستنتج منها شيئا ..

كنت فى انتظار أن تساعدنى الأحداث على اكتشاف سر
هذه العائلة .. السر الذى كان يبدو فى خيالى كأحد أسرار
أفريقيا ، التى لم يكتشفها أحد قبلى ..

وسليم يقود السيارة بالسرعة المجنونة ..
وأنا لا أزال متشبثا بحافة باب السيارة .. بكلتا يدي ..
واقتهينا من الشارع الطويل الذى يشق الحى الافرنجى ،
بمدينة باماكو .. وبدأنا نعبّر الكوبرى الطويل المقام على نهر
النيجر .. ثم اتتهينا من الكوبرى .. وانتهى الطريق المرصوف ،
وبدأت السيارة تهتز بعنف فوق طريق مترب مليء بالمطبات ،
تبدو فى ضوء فانوس السيارة كأنها ثقوب غربال ضخمة ..

واختفت كل مظاهر العمران ..
اقتنا فى قلب الغابة ..



الأشجار على الجانبين ، تبدو في الليل كأنها أشباح سوداء ..
تتحرك مع الهواء ، فيخيل اليك أنها تجري فوقك .. والهواء
الرطب يزداد ثقلا .. يكاد يجثم على صدرى .. وأصوات
الطيور تنطلق من فوق حواف الشجر ، كأنها أجراس صغيرة
تلا السماء ، وينطلق من بينها بين الحين والحين ، صوت غليظ
منفر .. كأنه الشخير المزعج .. لا أدري من أين ينطلق ، ولا من
يطلقه ..

وأحسست بالرغبة .. وتصورت أننا قد فلتقى بأسد .. أو
يقطع من القيلة .. أو قهقهة يقفز فوق رؤوسنا .. والتفت الى
المقعد الخلفى من السيارة ، أريد أن أطمئن الى أن سليم قد حمل
معه بندقية .. ولم أجد في السيارة بندقية ، أو سلاحا ..

ونسيت وسط هذه الرغبة المثيرة ، والخوف اللذيذ ..
قصة سامى .. بل نسيت سليم أيضا ..

ولكننى فجأة ، عدت أسأل سليم ، كانى أحاول أن أذكر
نفسى بمهمتى :

— ماذا يفعل سامى في هذه الغاية ..

وأجاب سليم فى صرامة :

— سترى بنفسك .. انه مجنون .. مجنون ..

ثم سكت ، وعاد يحلق بكل عينيه ، فى الشعاع القصير
المنطلق من مصباح السيارة ..

وعادت رغبة الغاية تطوئنى ..

وبعد برهة انطلقت أسأله مرة ثانية كأنى أحاول أن أبدد

رهيتى

— أليس فى هذه الغابة ، وحوش ..

وأجاب .. فى صرامة أيضا :

— فيها نوع من الانسان ، ألن من الوحوش ..

وسكت . وعاد يخلق فى الشعاع القصير المنطلق من مصباح

السيارة .. والسيارة تقفز بنا فوق المطبات ، كأننا نركب ظهر

حيوان متوحش !

وبعد ثلاثة أرباع ساعة ، بدأت أسمع صوت طبول ضخمة

تأتى من بعيد .. طبول مختلفة الأنغام .. دقاتها سريعة منغمة ،

قوية ..

وقلت فى دهشة :

— ما هذا ؟

وقال سليم وهو يلوى شفتيه فى قرف مر :

— حفلة رقص ..

وكلما تقدمت بنا السيارة ازدادت قرعات الطبول قوة

وسرعة .. حتى خيل الى أن كل أشجار الغابة ليست سوى طبول

تضرب عليها أيد مجنونة عنيفة فى جنونها ..

ولم أعد أسمع صوت موتور السيارة ..

ولم أعد أسمع صوت العصافير ..

ليس فى أذنى سوى هذه الدقات العنيفة ، تكاد تحطم

رأسى ..

وانحرف سليم بالسيارة داخل الغاية .. ثم أوقفها بين
الأشجار ، وأطلق نورها .. والتقط من جانبه مصباحا صغيرا
بيطارية ، ونزل من السيارة قائلا ، وأنا لا أكاد أتبين صوته :
- تعال يا دكتور ..

ثم أمسك بيدي .. وأطلق نور مصباحه .. وسار وهو يحني
الظهر ، كأنه يختبئ بين أغصان الأشجار .. وأحسيت قامتي
مثله ، وسرت وراءه ، وهو يشدلي من يدي .
وصوت الطبول العنيفة يخرق أذني .. ويضرب على قلبي .
وضوء أمامنا بدأ يبدو من بين الأغصان .. ضوء خافت .
ومع صوت الطبول ، تبينت صوت تصفيق سريع منغم .
ثم بدأت أتبين أصوات كلام لا أفهمه .. عشرات من الناس
يتكلمون ..

ومن وسط الكلام ترتفع صيحات .. صيحات مرحة !
واقتربنا ..
وبدأت أتبين وسط الظلام ، حواف أكواخ تبدو من خلال
الأشجار .

ثم اقتربنا أكثر ..
وجلس سليم على إحدى ركبتيه غتبتنا وراء شجرة صغيرة ،
وأنا غتبتني بجانبه ..

وعيناي متسعتان على آخرهما .. وأنفاسي مبهورة .
إنها قرية صغيرة .. لا يزيد عدد أكواخها عن عشرين ..
أكواخ من الطين المعطى بفروع الشجر .. وأمامها ساحة واسعة

جرداء .. نصبت في وسطها ، طيلتان كبيرتان .. يقف أمامهما
رجل عملاق يضرب عليهما بعصاتين غليظتين .. وعلى الأرض
فانوس يوقد بالغاز ، كالفانوس الذي يستعمل في إضاءة
خيمات الكشافة .. وأهالي القرية ملتفون في حلقة .. صدورهم
عارية .. ونهود النساء تتدلى عارية كأكواز العنبر فوق أغصان
دقيقة .. والجميع يصفقون صفقات سريعة مع دقات الطبول ..
وفي وسط الحلقة فريق منهم يرقص .. رقصات مجسونة ..
خطواتها أسرع من المارنجي والسامبا .. الأقدام سريعة ..
سريعة .. حتى لا تكاد تبدو من سرعتها .. وكل راقص ، أمامه
راقصة .

وبين الراقصين .. سامي !!

عارى الصدر ..

يبدو جسده الأبيض وسط كل هذا السواد ، كأنه شهاب
يشق الليل .. وهو يرقص ..

اله أبرع وأسرع من جميع الراقصين ..

وأمامه فتاة .. ترقص معه ..

تفس الفتاة التي رأيتها في قهوة فاني .. والتي قابلتها على
شاطئ النيجر ..

وركزت عيني المبهورتين من خلف الشجرة التي أختبئ
وراءها ، فوق وجه سامي ..

إن العرق يتساقط بغزارة فوق جسده ..

وعيناه متسعتان اتساعا غريبا ..

ونظراته فيها هذا الطابع الذى أعرفه جيدا .. طابع الجنون .
وهو يرقص ..

بعنف ..

وينزل على الأرض بظهره ، وقدماه ثابتتان .. حتى يلامس
ظهره الأرض .. ويرتمش ، ارتعاشات غريبة .. ويمرغ رأسه فى
التراب .. والفتاة تميل عليه ، وهى تهز يديها العاريين فى وجهه ،
هزات عنيفة سريعة ، كأنها تهرش بهما وجهه ..

ثم فجأة ينتفض سامى واقفا على قدميه .. وتنتفض الفتاة
معه .. ويرقصان .. والعرق يسبح من فوقهما .. كأنهما يلعبان
فى بحر من العرق .. والنظرات المجنونة فى عينيه .

ونور قوى ينطلق من بياض عينيها فيضىء وجهها كله ..
وابتسامة غريبة ترقص فوق أسنانها البيض ..

والتفت الى سليم المختبئ معى خلف الشجرة .. ان وجهه
متقلص كأنه أصبح قطعة من المطاط المنكمش .. وقبل أن أسأله
عن شيء .. قام واقفا ، وهو يقول فى صرامة :

— تعال معى ..

ثم دخل الى الساحة الجرداء .. ساحة الرقص ..
وأنا وراءه .. أرتعدا

ورأى بعض الأهالى سليم ، فكفوا عن التصفيق ..

ورآه بعض الراقصين ، فكفوا عن الرقص ..

والتفت اليه قارع الطبول ، فكف مرة واحدة عن قرع

الطبل ..

وتوقف الرقص فجأة ..
توقف كل شيء ..
ساد صمت رهيب مخيف ..
حتى طيور الغابة ، ليس لها صوت ..
وعيناي مركبتان فوق سامي ..
والتفت سامي حوله في دهشة ، كأنه يتساءل عن سر توقف
كل شيء ..
سر توقف الحياة ..
وعند ما سقطت عيناه على أخيه سليم ، انطلقت منهما
نظرة مخيفة .. نظرة مجنونة .. خيل الى أن عينيه انطلقتا
كرصاصتين مصوبتين الى قلب أخيه ..
وبدأت أنفاسه تتهدج ..
وتزداد تهدجا ..
وخلجة من وجهه فوق شفته العليا .. ترتعش في عنف ..
تكاد تنفصل عن وجهه !
والعرق يزداد تصبيا من جسده وتقف حياته — حيات
العرق — فوق جبينه كمسامير مزروعة في رأسه .
ثم رفع ذراعا مرتعشة ، وأشار بأصبعه الى صدر أخيه ..
وبدأ يتكلم ..
تكلم أولا بصوت خفيض .. ثم بدأ صوته يرتفع .. ويرتفع
حتى أصبح صراخا .. وكان يتكلم بلغة غريبة ..
لغة لا أفهمها ولا أعرفها ..

وأخوه سليم واقف أمامه لا يهتز .. وعيناه تقابلان في ثبات
العينين المجنورتين ..

وسامى لا يزال يصرخ ..

وهمست لسليم بصوت يحشرجه انفعالي مما أرى :

— بأى لغة يتكلم ؟

قال وهو لا يرفع عينيه عن أخيه المجنون :

— لغة « الولف » .. لغة الزوج !!

قلت :

— ماذا يقول ؟

قال :

— انه يقول اننا الشياطين البيض ، وقد جئنا لتخطف

الزوج ..

قلت :

— يبدو من عينيه أنه لا يعرفك ، ولا يعرفنى ..

قال :

— لا .. انه لا يعرفنى وهو فى هذه الحالة ..

قلت :

— كلمه بالعريية ..

قال :

— لن يفهمنى ..

قلت :

— حاول ..

وقال سليم لأخيه ، وهو لا يزال مركزاً عينيه فوق وجهه :
— أخى سامى .. أنا أخوك .. جئت لأصحبك الى البيت .
ولم يبد على سامى أنه فهمه .. واشتد صراخه .. وأخذ
يتلفت الى الأهالى ، وهو يصرخ فيهم كأنه يحضهم على شيء ..
وقلت لسليم :

— ماذا يقول الآن ؟

قال :

— انه يطلب منهم أن يقتلونا .

قلت فى رعب :

— هل يقتلوننا ؟

قال فى ثبات :

— لا .. لا تخف !!

والأهالى واقفون فى صمت .. ينظرون الى سامى نظرات
خيل الى أن فيها كثيراً من الحنان والحب .. وجوههم حزينة ،
كانهم على وشك البكاء .. ثم يلتفتون الى سليم ، كأنهم فى
انتظار ما يفعله ، وكأنهم يتوسلون اليه .. يتوسلون اليه لماذا ..
لا أدرى .. ولكنه مجرد احساس ألم بى وأنا أقرب عيونهم .
والفتاة التى كانت ترقص مع سامى واقفة بجانبه .. هى
وحدها التى ينطلق من عينيها نظرات غاضبة قاسية .. تكاد
تكون نظرات مجنونة .. توجهها الى سليم ..
وسامى لا يزال يصرخ ، ويشير يديه اشارات عنيفة ..

ثم لم يعد في صراخه كلام .. أصبح مجرد صراخ .. صراخ
حاد .. كصراخ حيوان مجروح وقع في فخ .. ويضرب الهواء
بيديه .. ثم يشد شعر رأسه .. ويصرخ ..

ثم فجأة التقط سامي العصا الغليظة التي كان يستعملها
قارع الطبل .. ورفعها في الهواء .. وهجم على أخيه سليم ..
بكل قوته .. بكل قله .. كأنه ثور هائج ..

ويبدو أن سليم كان ينتظر هذه المفاجأة .. فقد لمحتة يتخذ
في وقته وضعا معيناً .. ويركز قدميه في الأرض .. ثم ما كاد
أخوه سامي يصل اليه حتى أمسك بذراعه التي تحمل العصا ،
ولواها بعنف ، فسقط سامي على الأرض ، وهو يصرخ ،
ويضرب الهواء بساقيه .. وسقط فوقه سليم ، ورفع كفه
ليصفعه فصرخت فيه :

— لا تفعل .. لا تضربه !

ثم ركعت بجانبهما على الأرض .. وفتحت حقيبتى الطيبة .
وأنا أقول لسليم :

— ثبت ذراعه بقوة !

ثم بدأت أعد بسرعة حقنة مخدرة ..

والأهالي من حولنا يهممون في صخب وسخط .

وما كنت أهم بنظر الابرّة في ذراع سامي الذي لا يزال
يصرخ حتى أحسست بلكمات عنيفة فوق ظهري ..
والتفت ..

أنها نفس الفتاة ..

وتركتها تضربنى فوق ظهرى ، وحقنت سليم ..

ومرت لحظات ..

وسامى يخور ، ويرفس بقدميه .. وسليم فوقه يشل حركته
والفتاة لا تزال تضربنى فوق ظهرى .. وتصرخ بكلام لا أفهمه

كلام بلغة الولىف ..

وسرى المخدر ..

وهذا خوار سامى ..

ثم ..

نام ..

وقمت واقفا .. ونظرت الى الفتاة .. وواجهتنى بنظرة أخرى
كلها تعد .. ثم بصقت فى وجهى ، وهى تصيح بلفتها الفرنسية
الغريبة التى يخيل اليك وأنت تسمعها أن المسانا آخر يجلس فى
حلقها .. انسان أبيض :

— خنازير .. وحوش !! —

ثم ..

ثم أخفت وجهها يديها .. وأخذت تبكى بحرقة .. وحرارة
.. ثم سقطت على الأرض .. تحت أقدامى .. وتجمع حولها
بعض زميلاتنا ..

ولادى سليم بعض أفراد القبيلة ، عاونوه على حمل سامى ،
وساروا به الى السيارة ..

ومسحت الرذاذ الذى أصاب وجهى من بصقة الفتاة ،
وسرت وراءهم فى موكب حزين ا



وقلت لسليم ، ونحن عائدون ، وسامى ملقى فى المقعد
الخلفى من السيارة : -

— هل تحدث له هذه الحالة كثيرا ..

قال ولهجت اللبناية تملأ صدقيه :

— كثيرا يا دكتور .. مرتين فى الشهر .. وأحيانا ثلاثا ..

ثم التفت الى ، وقال بلهفة :

— هل تستطيع أن تشفيه يا دكتور ..

قلت وأنا قائلة فى تشخيص حالة سامى :

— لا أدري .. لا أستطيع أن أؤكد ..

قال فى توصل لم أعهد منه :

— أرجو يا دكتور .. حالته معروفة فى كل البلد .. وكل

الجاليات هنا تقاطعنا بسببه .. انهم يحرقونا .. الفرنسيون

يحرقون عائلتنا .. والمهاجرون العرب أيضا يحرقوننا وأنا

لا أستطيع أن أعمل .. تجارتي تكاد تتوقف ..

قلت كأتى لم أسمع كلامه :

— كيف عرفت أنه فى هذه القرية ؟

قال :

— انه يلجأ دائما الى هذه القرية عند ما يختفى من البيت

.. وأحد أفراد القبيلة يعمل عندى فى الدكان ، ويبلغنى كلما

لجأ اليهم سامى ..

قلت :

— دائما هذه القرية ؟

قال :

— دائما يا دكتور ..

قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— منذ عامين .. ربما قبل ذلك .. ولكنى لم أعلم الا منذ عامين ..

ووصلنا الى البيت .. وتعاونت مع سليم على حمل سامى ، ووضعته فى فراشه ..

وكنت أعلم أن مفعول المخدر ينتهى بعد ساعة ونصف .. وقد قطعنا طريق المسودة فى ساعة .. بقى نصف ساعة ويفيق سامى ..

وقررت أن أنتظر حتى يفيق ..
كنت أريده أن يرانى بمجرد أن يفتح عينيه حتى أشعره بالى علمت بحالته ..

ومرت الدقائق ..
وأنا وسليم صامتان .. لا أريد أن أسأله عن شيء .. وهو يخشى أن يحدثنى حتى لا يضايقنى ..
وبدا سامى يفيق ..

بدا أولا يتكلم كلمات مقطعة بلغة الولف ..
ثم بدأ يتكلم باللغة العربية .. وكان أول ما قاله .. وهو يهز رأسه على الوسادة ، هزات عنيفة ..

— سليم .. أخى سليم .. لا تتركنى يا أخى ..
ونظرت الى سليم ..
ورأيت صمرا سامتا تجرى فوق خديه ..
وتمجبت ..
لم أكن أعتقد أن سليم ، رقيق الى هذا الحد .
ثم ..
فتح سامى عينيه ..
وكان أول شيء رآه .. وجهى ..
وارتجفت جفونه فوق عينيه .. ثم عاد ينظر الى وجهى :
وقمت من جانبه ، وأنا أقول له :
— استرح .. يجب أن تستريح !
ثم تركته ، وحملت حقيتى ، وانصرفت ..
وهو لا يتكلم ..
ولم أكن أريد فى هذه الساعة أن أبدأ علاجه .. كنت أريد
أن أمرك له الفرصة ليقرر بنفسه ، اذا كان يريدنى أن أعالجه
أم لا .. ان العلاج النفسى يعتمد أولا على رغبة المريض الحرة
فى أن يعالجه الطبيب .. والا فشل كل علاج .
وسار ملى سليم ليصحبنى بسيارته حتى الفندق .. وسألته
خلال الطريق :
— أين الأنسة سامية .. لم أراها ؟
قال وهو يتنهد كأنه يتحدث عن مصيبة أخرى :
— نائمة ..

وتركته عند باب الفندق ..
ودخلت حجرتي .. وجلست أدون في مذكراتي الطيبة حالة
سامي ، وكل ما شاهدته ، ثم كتبت كلمتين :
« ازدواج الشخصية » !
ونمت وأنا أتمنى أن يأتي سامي لزيارتي في الصباح ..

صحوت من نومى مبكرا .. قبل الموعد الذى تعودت أن
أصحو فيه ..

والواقع أنى نمت نوما قلقلنا ، أقلقتنى خلاله محاولة دراسة
حالة سامى .. ولم تكن هذه الحالة غريبة على .. حالة ازدواج
الشخصية .. فقد سبق أن مرت على حالات كثيرة لازدواج
الشخصية ونجحت فى علاجها . ولكن الظروف المعيقة بسامى ،
والتي لا بد أن لها أثرا كبيرا فى ازدواج شخصيته .. ظروف
افريقيا .. كانت جديدة على .. غريبة .. مثيرة .. فلم ألق من
قبل بحالة ازدواج فيها شخصية زنجى ، وشخصية رجل أبيض
ترى ما سر هذا الازدواج ؟

ان ازدواج الشخصية يعنى معركة دائمة بين العقل الواعى ،
والعقل الباطن .. وفى كل منهما تعيش شخصية .. شخصية فى
العقل الواعى .. وشخصية فى العقل الباطن .. ويتنصر العقل
الواعى حينما يفرض شخصيته على تصرفات اللسان .. ويتنصر
العقل الباطن حينما آخر ، يفرض شخصيته بدوره .. وفى كلتا
الحالتين تستمر المعركة ..



فما هو سر المعركة في نفس سامي ؟
وماذا يشير لها ؟

وقمت من فراشي ، وأنا شارد وراء هذه الخواطر ، وارتديت
ثيابي ، وجلست في انتظار سامي ..
كنت متأكدا أنه سيأتي إلي بعد أن عرف أنني علمت بحالته .
وكنت أريده عند ما يأتي أن يجدهني في غرفتي لا في بهو
الفندق ، حتى أبدأ في تحليله مباشرة .. فطلبت فطوري داخل
الغرفة .. ثم جلست أنتظر .. مرت الساعة السادسة والنصف
صباحا ، وهي الساعة التي تعود سامي أن يزورني فيها .. ولم

يأت .. ومرت الساعة السابعة ولم يأت .. والثامنة .. والتاسعة ..
وأنا جالس في غرفتي كطبيب فاشل ينتظر أن ين عليه أحد
المرضى بزيارته ..

وفي الساعة العاشرة والنصف سمعت طرقات على بابي ..
طرقات خفيفة ، متردة ، ليست كالطرقات العنيفة التي
تمودتها من سامي ..

ورغم ذلك التفضت واقفا ..

ربما كان هو سامي ، ولكن طرقاته خفت وهو يطرق بابي
كمريض لا كصديق ..

وفتحت الباب ..

لا .. ليس سامي ..

انها اخته سامية ..

انها حالة أخرى ..

وبسرعة التقل كل عقل من حالة سامي ، الى حالة
سامية .. الفتاة الكبيرة التي جاوزت الخامسة والعشرين من
عمرها .. والتي تبدو باهتة في لون المرض .. وتعيش في ذكرى
زيارتها للبنان عندما كانت في العاشرة من عمرها .. وتساكني
عن الأستاذ محمد عبد الوهاب والسيدة ليلى مراد .. وتبكي
وتصرخ عندما تسمع صوت أم كلثوم ..

ووقفت سامية على الباب لا تريد الدخول .. وتنتظر الى
في تردد يبدو من خلاله شيء كالخوف ..
وابتسمت لها ابتسامة كبيرة ، وقلت في بساطة :

— أهلا سامية .. اتفضلتي ..
وعادت تنظر الى هذه النظرات المترددة التي يبدو فيها
الخوف ..

ولم ألع عليها مرة ثانية ..
خفت أن يؤدي الحاحي الى ازدياد خوفها ، وهروبها ..
وبقيت واقفا أمامها محتفظا بإبتسامتي الكبيرة ، متعمدا أن
أنظر اليها نظرة هادئة ليس فيها دهشة ، وليست نظرة فاحصة ..
وبعد برهة رفعت سامية اصبعها ووضعت في فمها .. كما
يفعل الأطفال .. وأخفت رأسها وهي تبتسم في خجل ساذج ..
ثم خطت داخل الغرفة ..

وأغلقت الباب وراءها .. وأنا أشير لها الى المقعد الكبير
الوثير في الحجرة ، وأقول في حنان :
— اجلسي يا سامية ..

والتفتت بسرعة الى الباب الذي أغلقته وراءها .. وترعت
اصبعها من فمها .. ونظرت الى في تساؤل خائف ..
وقلت لها ردا على خوفها :

— كيف حالك .. وكيف حال اخوتك ..

ولم تجبني ..

ظلت تنظر الى برهة هذه النظرات الخائفة .. ثم هدأت
نظراتها .. واتجهت الى المقعد الكبير في خطوات هاسئة ، كأنها
تسير في نومها .. وجلست .. وعادت تضع اصبعها في فمها ..
وتبتسم في خجل ساذج ..

وجلست على مقعد آخر قبالتها .. وأنا صامتة .. وهي صامتة .. ثم قمت وفتحت أحد الأدراج وأخرجت صندوق بسكوت احتفظ به دائما خلال رحلاتي ، لأتناول منه اذا جئت بين وجبات الطعام .. وقدمت اليها الصندوق .. وأنا أقول :
— هذا بسكوت من مصر ..

ورفعت اصبعها من فيها .. ونظرت الى نظيره فرحة .. وترددت قليلا .. ثم أخذت قطعة بسكوت .. واحتفظت بها في يدها .. لم تأكلها ..
قلت :

— لماذا لا تأكليها .. ان مصر مشهورة بالبسكوت ؟
قالت في صوت خافت خجل :
— سأحتفظ بها .. ذكرى من مصر !
قلت :

— كلى هذه القطعة .. وخذي قطعة أخرى للذكرى !
وابتسمت ..
وقطعت قطعة صغيرة من البسكوت ، ثم وضعت يديها في حبرها ، ونكست رأسها .. وعادت الى الصمت ..
ونكست أنا أيضا بالصمت ..

تركناها تقاوم نفسها ، لتبدأ في الحديث ..
وفجأة رفعت رأسها ، وقالت في صوت رفيع كأنه صوت طفلة :
— هل متجهب الى لبنان بعد أن تنادر باماكو
قلت كاذبا .. وأنا أنظر اليها نظرة فاحصة :

— نعم .. سأذهب الى لبنان ..
ولمعت عيناها بهريق حاد ، وقالت كأن الطفلة تهم بالبكاء :
— هل تأخذنى معك ؟
واتنظرت قليلا ، ثم قلت فى هدوء كأن ليس فيما تطلبه
غربة :

— يسعدنى أن آخذك معى ..
قالت فى فرح :
— متى ؟

وأنا أعلم أن الكذب ليس الطريق الصحيح لعلاج المريض
النفسى ، ولكنى وجدت نفسى مضطرا للكذب فى هذه الحالة ..
لم يكن لدى الوقت الكافى لأتبع الطرق السليمة فى العلاج ..
وقلت وأنا أخفى كذبنى تحت ابتسامتى :

— ربما بعد أربعة أيام ..
قالت وهى تهمل كالإطفال :

— صحيح ؟
قلت :

— صحيح .. ولكن .. حدثينى عن لبنان .. األك تعرفينه
أكثر مما أعرفه ..

وألقت رأسها على المسند الخلفى للمقعد ، وقالت والسعادة
تبرق فى عينيها :

— لبنان جميل .. جميل .. الله جنة .. لقد كنا نقيم هناك
فى عالية .. فوق بيروت .. كنا نقيم فى قصر كبير .. وفى كل يوم

كنا نزل الى بيروت .. ان بيروت كبيرة .. مزدحمة .. فيها كل شيء .. كل شيء تريد تجمعه هناك .. و ..

وتركتها تتكلم ، وقمت من جانبها ، وامسكت بدفتر مذكراتي الطيبة ، وجلست خلف رأسها ، على حافة السرير .. كنت أريد أن ابتعد عن عينيها ، حتى أتركها تتحدث الى نفسها بصوت عال ..

واستطردت سامية قائلة :

— وكانوا يقيمون هناك حفلات لأبي .. كل ليلة يقيمون له حفلة .. وكان يقف ويلقي قصائد من شعره .. والناس تصفق .. كل الناس تصفق .. وتهل .. تصفقا كثيرا .. و .. واستطردت طويلا في حديثها عن الحفلات التي كانت تقام لأبيها في بيروت .. كانت تصف كل حفلة بأدق تفاصيلها .. تصف حتى ألوان الطعام .. وأشكال الأطباق والشوك والسكاكين .. وتذكر أسماء كثير من المدعوين .. كانت تتكلم كأنها حاضرة في الحفلة .. كأن كل هذا حدث اليوم ، لا من عشرين سنة ..

ولكني لاحظت أنها في خلال حديثها الطويل ، لم تتحدث عن نفسها أبدا .. لم يقل ماذا كانت تفعل خلال هذه الحفلات .. وقاطعتها قائلاً ، وأنا أجلس خلف رأسها :

— هل كنت تحضرين هذه الحفلات ؟

ومسكت مرة واحدة .. ولم تلتفت الى برأسها .. ظلت عيناها معلقين في الفضاء .. كأنها نسيت أنني معها في الحجرة ..

وكان صوتي ينبعث من داخلها ، لا من شخص آخر يجلس معها ..

وتنفست سامية بعنف ، كان شيئاً يضغط على صدرها ..
ولم تجب على سؤالى ..
عادت تتحدث عن لبنان ، والحفلات التى أقيمت لهم هناك ..
وقالت :

— وكانت جرائد لبنان تكتب عن أبى .. كل يوم تكتب عنه .. وتنشر صورته ..
وقاطعتها قائلاً :

— وصورتك أنت .. هل كانت تنشر فى الصحف ..
وسكتت مرة ثانية .. وبدأت تعود الى التنفس بصعوبة ..
ووجهها يرداد بياضاً ..
ثم قالت كأنها تحلم :

— صورتى .. صورتى ..
ثم استراحت أنفاسها ، واستطردت :
— كانت الجرائد تنشر كل قصائد أبى .. كان له ديوان من الشعر .. و ..

لقد استطاعت مرة ثانية أن تهرب من سؤالى .. اذ هناك شيئاً تهرب منه رغم إرادتها .. شيء لا تملك القدرة على مواجهته ..

وتركتها تتحدث عن لبنان طويلاً ..
ثم فاجأتها بسؤال آخر :

— وماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وسكتت ..

وفي هذه المرة ازدادت ألقاسها ثقلا ، حتى خيل الي أنها
تحترج .. وازداد وجهها بياضا .. وقبضت بقوة على مسندى
المقعد الذى تجلس عليه ، حتى تقرت عروقها من تحت جلد
يديها .. وبدأت قطرات من العرق تنبثق فوق جبينها .. ولم
تجب على سؤالي ..

مرت فترة كافية ، ولم تجب ..

وأعدت السؤال بلهجة أكثر حزما ، كالى أطاردها ..

— ماذا حدث بعد أن رجعت من لبنان ؟

وأصبحت ألقاسها خوارا .. وبدأ يبدو عليها أنها تخوض
معركة عنيفة .. قاسية .. تمزق أعصابها .. وتمزق ألقاسها ..
ثم قالت فى صوت عال .. عال جدا .. كأنها استطاعت أخيرا
أن تفر من المعركة :

— وفى لبنان زار أبى رئيس الجمهورية .. وأعم عليه

بوسام .. و ..

وسكتت مرة واحدة ..

ثم أخذت رأسها ، ووضعت يديها فى حجرها ، وهدأت ..
وقطرات العرق لا تزال معلقة فوق جبينها ..

واستنتجت أنها لا تريد أن تتذكر شيئا بعد عودتها من
لبنان وهى طفلة .. لا تستطيع أن تتذكر ..

وفى نفس الوقت لا تريد أن تتذكر ما كانت تفعله هى فى

لبنان .. أو لا تستطيع أن تتذكر .. انها ترى الصورة .. صورة
لبنان .. ولكنها لا ترى نفسها في هذه الصورة .. ترى أباه ..
واخوتها .. وتعلم أنها كانت معهم .. ولكنها لا ترى نفسها ..
وكان من المستحيل أن أستم في تحليلها .

كالت قد تعبت .. بحيث لم تعد تحتل مزيدا من التشخيص
العلاجي .. فقامت من خلف راسها .. وهدمت إليها وفي يدي
صندوق البسكوت . وقلت في حنان :

— لا تنسى أن تأخذي قطعة للذكرى ..

ورفعت الى عينيها ..

ورأيت فيهما دموعا واقفة ، تعجز عن أن تنحدر ..

وقلت وأنا أبسم لها ابتسامة كبيرة :

— لا تنسى أن تأتي لزيارتي غدا لتتفق على موعد السفر

الى لبنان ..

وبرقت عيناها من خلال دموعها ، وقالت في حزم غريب :

— نعم .. سأحضر غدا ..

وقامت تسير في خطواتها الهامسة ، كأنها تسير في نومها ..

وأغلقت الباب ورامها ..

وعدت الى مذكراتي ، وأخذت أراجع ما سجلته فيها من

كلام سامية ، ثم كتبت جملة واحدة :

توقف في غزو الشخصية ..

وهي حالة نادرة في الأمراض النفسية .. فأحيانا يحدث

للشخص في سنوات طفولته أو شبابه حادث عنيف يسقط في

العقل الباطن ، ويبلغ من عنفه أن يسيطر العقل الباطن سيطرة عنيفة على العقل الواعي ، بحيث يشل نموه .. ويظل — أى العقل الواعي — يتحرك في حدود العقل الباطن .. أى يظل العقل الواعي طفلاً .. ويكبر الشخص .. يكبر في عمره .. ويكبر في جسده .. ولكن دائرة نشاط عقله لا تكبر .. تظل محدودة في نطاق العقدة التي تشكل العقل الباطن ..

وقد توقف نمو شخصية سامية منذ عادت من لبنان .. انها لا تزال تعيش في العمر الذي عادت به من هناك .. عمر الخامسة .. أو العاشرة .. ولا يزال عقلها يدور في هذه الأيام .. انه يدور عبر السنين ، كمجلة معلقة في الهواء .. يدور على القاضى .. وكل ما قطعه من مسافة هو المسافة التي تصل بها الى عمر العاشرة .. وبسببها علق عقلها في الهواء .. ما هو هذا الحادث الذي وقع لسامية في طفولتها ، وأوقف نمو شخصيتها ..

وأجهلت نفسى في محاولة تصور هذا الحادث .. ربطت بين كلامها ، وبين سؤالها المبهور عن عبد الوهاب ، وليلى مراد ، وهذه الحالة الهستيرية التي اتابتها عندما سمعت صوت أم كلثوم ..

ولكنى لم أستطع أن أصل الى شيء ..
انها حالة مستعصية ..

ومثل هذه الحالات قد يستغرق علاجها أكثر من مائة جلسة ، تستمر شهوراً طويلة ..

وقد كنت مقررا أن أغادر بإمّاكر في اليوم التالي .. وقد
أستطيع أن أمد اقامتي أربعة أيام أخرى .. ولكن لا أكثر من
هذا .. فاني مرتبط بمواعيد محددة في القاهرة ..

هل تكفى أربعة أيام لعلاج سامية ؟

ثم هناك سامى ..

ربما كانت حالته أكثر استعصاء ..

ووقعت في حيرة بين مواعيدى في القاهرة ، وبين لهفتى
على اكتشاف سر هذه النفوس .. لاكتشف من خلالها سر
افريقيا !

ونظرت في ساعتى ..

ياه .. انها الواحدة بعد الظهر !

وسامى لم يأت ..

ربما لن يأتى ..

وتركت غرفتى بسرعة ، ولزت الى قاعة الطعام ، وقد قررت
أن أبدأ بعد تناول غدائى البحث عن سامى ، ما دام سامى لم
يبحث عنى ..

وخرجت من الفندق بعد الغداء ، وقد وضعت على رأسى
القبعة الكبيرة الفلين .. قبعة الرحالة ستافلى مكتشف افريقيا ..
ونسرت في خطوات سريعة حازمة نحو بيت سامى .. واحساس

كبير علا سدرى ، بأنى - أنا الآخر - فى طريقى لاكتشاف
أفريقيا ..

وكنت أعرف بيت سامى بالتقريب ، رغم ألى سبق أن زرتة
مرتين .. ووجدت نفسى تائها فى بعض الشوارع الجانبية .. ولم
أياس .. بل ان هذا الضياع أحسننى أكثر بأنى مكتشف .

وبعد مدة استطعت أن أصل الى بيت سامى الذى يقع فوق
الدكان الكبير .. وصلت دون أن أسأل أحدا من المارة عن
الطريق ..

ورأيت ..

رأيت سامى ..

كان واقفا داخل الدكان الكبير .. وكان لدهشتى يصرخ
فى وجه شاب زنجى ، استنتجت أنه يعمل صبيا فى الدكان ..
وازدادت دهشتى ..

لقد رفع سامى كفه وبدأ يصنع الشاب الزنجى .. والشاب
ينحنى تحت وقع المصنعات ، ويصخب ببعض الألفاظ التى
لا أفهمها .. لعلها ألفاظ من لغة « الولىف » ... لغة أهالى
ياماكو ..

وسامى لم يرئى ..

كنت واقفا خارج الدكان ، أرقبه من بعيد ..
واستنتجت أنه فى حالة تسيطر عليه فيها شخصية الرجل
الأبيض .. الرجل الذى يستطيع أن يقسو على الزوج ..

وتركت مكاني واتجهت الى داخل الدكان بعد أن انتهى
سامي من ضرب الشاب الزنجي وصرفه من أمامه ..
واستقبلني سامي في دهشة يشوبها الارتباك ..
ثم سيطر على نفسه بسرعة .. وصاح يرحب بي بلهجته
اللبناية ..

ثم بدأ يتكلم .. يتكلم كثيرا .. والكلمات المنفخمة تملأ
شذقيه ..

كان يتكلم ، وكأن لا شيء حدث بالأمس ..

كأنه لا يعلم أنني عرفت بحالته ..

وتلفت داخل الدكان ، فلم أر أخاه سليم .. وخطر لي خاطر
جديد .. ربما كانت شخصية الرجل الأبيض تسيطر عليه أكثر
عندما يغيب عنه سليم .. ربما كان وجود شخصية سليم ، تضعف
شخصية الرجل الأبيض في سامي ..

ولكن لماذا ؟

ثم ما هي المناسبة التي تتحول فيها شخصية الرجل الأبيض
الى شخصية الرجل الأسود ..

وقلت لسامي في لهجة عتاب :

— لماذا لم تمر على هذا الصباح .. لقد انتظرتك ..

وسكت سامي قليلا ثم قال وهو ينظر الى بوز حذائه :

— لا أدري ..

ثم استطرد كأنه قدم على اجابته :

— كنت مشغولا في الدكان ..

قلت وأنا أبتسم له :
— هل تستطيع أن تصحبني الآن في جولة .. لقد وعدتني ..
أذكر ..

ونظر سامي في وجهي نظرة سريعة كأنه يختبرني .. ثم
ابتسم كأنه اطمأن الى ، وفأدى صبي الدكان وألقى اليه
بأوامره ، ثم وضع ذراعه في ذراعي ، قائلاً :

— هيا بنا .. سأصعد بك الى قمة كولوبا .
وأشار بأصبعه الى الجبل الذي يطل على مدينة باماكو ..
واستطرد قائلاً :

— انه يسمى جبل كولوبا .. وفوق القمة يقع قصر الحاكم
الفرنسي ..

قلت في بساطة :
— أظن ألي في حاجة الى الذهاب الى الفندق أولاً ..
لأبذل ثيابي !

وهز سامي كتفيه بلا مبالاة .. وعاد يتكلم كلامه الكثير ،
وهو يسير وعيناه مركزان فوق بوز حذائه ..
ووصلنا الى الفندق ..

ودعوت سامي للصعود الى غرفتي ..
ثم اقترحت عليه أن تبقى في الغرفة قليلاً الى أن تتناول
قسطاً من الشاي ..
وكنت في كل ذلك أحاول أن أبداً بسيطاً ، طبعياً ، كأنني
لا أتعهد شيئاً ..

ثم قطعت كلامه الكثير ، وسأله فجأة :

— أين كنت ليلة أمس ؟

وسكت سامي ونظر الى نظرة عتاب مر ، كأنني غدرت به ،

ثم أحنى رأسه وقال كأنه يتنهد :

— كنت مريضا .. أنت تعلم أنني كنت مريضا .. لقد رأيتك

بجانبى بعد أن أققت من اغمائي ..

قلت وأنا أحاول أن أبدا مهذبا رقيقا :

— أقصد ، أين كنت قبل أن تصاب بالاعماء ؟

قال :

— كنت في البيت .. لقد خرجت من البيت في الساعة

السادسة وذهبت الى حانة تسمى لاكريون .. وكنت مقررا أن

أمر عليك في الساعة الثامنة ، كما وعدتك .. ولكن يظهر أنني

بدأت أشعر بدوار .. فعدت الى البيت .. وأصابني الاعماء ..

وهم أفق الا بعد أن حقنتني .. فسيث أن أشكرك على اسعافى ؟

وسكت ..

وبقيت صامتا ، أتشغل بتغيير ثيابي .. ثم بعد برهة .. قال

سامي كأنه يخاطب نفسه :

— أخى سليم يقول اني كنت في الغابة .. ولكنى لا أذكر

أنى ذهبت الى الغابة .. ان سليم يهمنى دائما بتهم غريبة ..

ولنظرت اليه .. ان وجهه يبدو متعبا .. بدأ يميل الى

الاصفرار .. وبدأت أغمسه ترتبك .. كأنه يبدل مجهودا ليتذكر

شيئا ..

وحولت عيني عن وجهه .. وعدت أدعى التشاغل بتغيير
ثيابي .. وأنا أتنظر أن يستطرد في حديثه ..

ولكنه سكت ..

سكت طويلا ..

ثم فجأة بدأ يعود الى كلامه الكثير .. ولم أكن أريد هذا
الكلام .. كنت أريد أن أحصر ذهنه في نطاق حالته .. ولذلك
قاطعت مرة ثانية قائلا :

— لقد رأيت هذه الفتاة ..

وقال في دهشة :

— أي فتاة ؟

قلت :

— الفتاة الزنوجية التي مرت ونحن في مقهى فاني .. لقد
رأيتها في اليوم التالي على شاطئ النيجر ..
قال :

— أنا لا أذكر فتاة مرت بنا في فاني ..

ثم ابتسم ابتسامة كبيرة وقال مداعبا :

— يظهر يا دكتور أنك معجب بالبنات الزنوجيات ..
ونظرت اليه في دهشة ..

انه يبدو صادقا ..

انه فعلا ، لا يذكر هذه الفتاة .. الفتاة التي جرى وراءها
في مقهى فاني .. والتي رأيتها ترقص معه في القاعة .. والتي

ضربتني وبكت وأنا أحقنه بالمخدر .. والتي فرت من أمامي
عندما سألتها عن سامي ساعة أن التقيت بها على شاطئ البحر ..
وهو لا يذكر أيضا أنه كان في الغابة .. يرقص بين الزوج ..
ويحرضهم على الثورة على البيض .. ويرفع عصا غليظة ويحاول
أن يعتدي بها على أخيه سليم ..

انه لا يذكر كل ذلك ..

لا يذكر شخصيته الثانية ..

هناك انفصال تام بين الشخصيتين ..

ليس هناك خيط واحد يربط إحدى الشخصيتين بالأخرى ،
ويساعد سامي على اكتشاف حالته ..

ولم أحاول أن أذكره بشيء .. ليس من واجب الطبيب أن
يذكر مريضه ، ولكنه فقط يساعد على التذكر .. ولو كنت
أصررت على أني رأيته في الغابة ، وعلى أنه على علاقة بهذه
الفتاة .. لتفقدت ثقته بي .. وهرب مني .. كما يهرب من عقده ..
وكما يهرب من أخيه سليم ..

وجلست قبالة ، وتناولت قدح الشاي بين يدي في هدوء ،
وقلت في بساطة :

— انك لم تحدثني أبدا عن قصة هجرة والداك الى
افريقيا .. اني مشوق لسماع هذه القصة ..
وابتم سامي ابتسامة اعتزاز ، وقال كأنه يتحدث عن
فخر كبير :

— لقد جاء والدي الى افريقيا منذ حوالي خمسين سنة ..

وكان من أوائل المهاجرين اللبنانيين الذين وصلوا الى باماكو ..
وكان مهاجرا شريفا .. لم يحاول أن يحتال على الزنوج .. ولم
يحاول أن يكون عميلا للفرنسيين .. كما كان يفعل كثير من
المهاجرين .. ولكنه تاجر يشرف .. وأحبه الزنوج .. واحترمه
الفرنسيون .. وكسب كثيرا .. وكان أول من بنى في باماكو
عمارة من ثلاثة أدوار .. بنى أربع عمارات كانت قدر عليه دخلا
كثيرا .. لا يقل عن أربعة ملايين فرنك في العام .. ولكنه كان
مسرفا .. كان يصرف كثيرا .. خصوصا على الأدب .. فقد كان
أديبا كبيرا .. كان شاعرا لا يقل عن أحمد شوقي ، أو عن إيليا
أبو ماضي .. وكان الصحفيون اللبنانيون يأتون لزيارته كل عام
فيغدق عليهم من أمواله .. وأصدر على حسابه مجلة أدبية في
بيروت .. واشترى مطبعة خصيصا لطبع دواوين شعره .. كانت
أول مطبعة تصل الى باماكو .. و ..

واستطرد سامي يتحدث عن أبيه في فخر واعتزاز كبيرين ..
أكبر من فخر واعتزاز أي ابن بأبيه ..
ثم قال :

— ومات .. وعقب موته اكتشفنا أنه أضاع كل ثروته ..
وأن كل العقارات التي تركها مثقلة بالديون .. أن أبي لم يكن
فاشلا .. ولكنه كان فنانا .. كان شاعرا .. فمأش كما يعيش كبار
الشعراء .. مسرفا .. وقد مرونا بسنوات قاسية بعد موته ..
اضطرت أنا وأخي سليم أن نشتغل لدى مهاجر آخر .. ولكن
أخي سليم استطاع أن يبدأ في التجارة من جديد ..

ثم سكت برهة ، وانطلق كأنه يؤكد شيئاً لنفسه لا لى :
— ان سليم تاجر قاجح .. انه أكثر من يفهم فى التجارة ..
واستطرد يتحدث عن أخيه سليم طويلاً .. ثم بدأ يتحدث عن
سامية .. ولم يتحدث عنها كثيراً .. قال عنها بلامبالاة .. انها
مریضة .. ضعيفة ..

قلت أقاطعه :

— مریضة بماذا ؟

قال :

— لا أدرى .. ولكنها دائماً مریضة .. عصبية .. منذ توفى
والدى .. لقد كانت صدمة كبيرة لنا .. ولكنها كانت صدمة
أكبر بالنسبة لسامية .. فقد كان والدى يختصها بحبه وتدليله ..
ثم عاد يتحدث عن والده ..

وقد استغرق حديثه منذ يبدأ أكثر من ثلاثة أرباع ساعة ..
اتهمنا خلالها من تناول الشئ .. ولم يعل أبداً هذا الحديث ..
وأنا أتبعه بكل نشاط ذهنى ، أحاول أن أكتشف من خلال
كلماته شيئاً يساعدنى على تحليل حالاته ، والوصول الى
عقدته .. ولكن لا شئ .. ان كل ما ذكره يبدو عادياً .. وهو
يتحدث وهو ثابت الشخصية منتظم الأتفاس ، قوى الأعصاب ..
ولم ألاحظ عليه أنه يهرب من مرحلة من مراحل حياته سواء فى
حياة والده ، أو بعد وفاته ، بل كان حديثه مسلسلاً متصلاً ،
يبدو دائماً منطقياً ..

ولكننى فجأة تنبعت الى ملاحظة ..

الله لم يتحدث عن أمه ..
كل هذا الحديث الطويل ، ولم يذكر شيئاً عن أمه ..
من المستحيل أن يتحدث السان عن تاريخ حياته ، ويذكر
كل هذه التفاصيل الدقيقة ، دون أن يذكر أمه بكلمة واحدة .
وسألته فجأة ، كإنى فرحت بهذه الملاحظة التي اكتشفتها
في حديثه :

— وأمالك .. أنك لم تحدثني عن السيدة والدتك !
وسكت سأمى برهة ..
ونظر الى هذه النظرة التي يغتبرني بها .. وتطلب جبينه
قليلاً .. ثم أرخى عينيه وقال في اختصار مريب :
— ماتت ..

وسكت وبدأ ينظر الى يوز حدائه ..
وعاجلته بسؤال ثان :
— متى .. متى توفيت ؟
وشد ألقاسه من صدره كآله يشدها من بئر عميقة وقال :
— بعد وفاة والدي بشهور ..
قلت كإنى اللاحقه :

— هل كانت مع والدك عند ما جاء الى افريقيا ؟
ورفع عينيه وفيهما نظرة حادة ، وقال كآله ينفي تهمة :
— لا .. لا .. لقد تزوجها بعد أن هاجر بمدة طويلة ..
وبعد أن أصبح غنياً .. سافر الى لبنان .. وتزوجها هناك ، ثم
عاد بها ..

قلت وأنا اركز عيني فوق وجهه :
— لايد أنها كانت سيده عظيمه ..
وهب واقفا مرة واحدة وهو يزفر في ضيق ، وقال دون أن
يرد على :

— ألا تريد أن تذهب الى قمة كوبالا ؟
وخفت أن أفقد ثقته .. ففقت واقفسا معه ، وأنا أنسحب
انسحابا منظما :

— نعم .. لقد انساا الحديث قمة الجبل ..
ولكن كانت هناك محاولة أخرى يجب أن أبذلها قبل أن
أخرج من الغرفة .. فقللت له وأنا أنظر الى رقبته كأنى لاحظت
شيئا لم ألاحظه من قبل :

— ما هذا الحدش ؟
وأشرت الى الحدش الذى يشق رقبته ، والذى سبق أن
لاحظته فى صباح الليلة التى تركنى فيها فى مقهى « فاني »
وجرى وراء الفتاة الزفجية ..

ووضع يده بسرعة فوق الحدش كأن شيئا قد لسهه فى
رقبته ، وقال وهو يتسم فى ارتباك ..

— لا أدري .. الى دائما أصاب بخدوش دون أن أدري .
ربما لأنى أتحرك دائما وأنا سارح مع خيالى .. انى شاعر كما
تعلم .. كوالدى ..

ولفرت فى عينيه ..

انه يبدو صادقا ..

وخرجت من الفندق ، وركبنا سيارة صعدت بنا الجبل ..
وأنا في حالة يأس .. في يأس من أن اكتشف الشخصية الثانية
في سامي وأضعها أمام عينيه ، ليبرأ منها بمجرد أن يراها .. انى
أتخيل (الشخصية الثانية) دائماً كالثعلب الذكى الذى يجيد
الاختباء ومراوغة الصياد .. وأنا الصياد .. وهذه (الشخصية
الثانية) التى تسيطر على سامي أشد خبثاً من كل (الشخصيات
الثانية) التى صادفتها فى حياتى .. انها تجيد الاختباء فى العقل
الباطن ، بحيث لا يستطيع أى عقل راع اكتشافها .. لا عقل
سامي ، ولا عقلى !

وقد قدرت انى يجب أن أبحث عن طريق آخر لاكتشاف
عقدة سامي .. طريق آخر غير هذه الجلسات التى تعودت أن
أعقد مع مرضاى .. كان يجب أن اكتشف العقدة قبل العلاج ،
لا من خلال العلاج .. وهذا طريق خاطئ فى علم النفس
التطبيقي .. فان جهل الطبيب بعقدة المريض ، يساعد المريض
أكثر على اكتشاف عقده بنفسه .. وعند ما يكتشفها بنفسه ،
يتأكد شفاؤه منها .. ولكنى كنت مضطراً الى الالتجاء الى
الطريق الآخر ، فأيامى فى باماكو معدودة .

كانت الخطة التي وضعتها هي أن ألجأ الى سليم الأخ الأصغر ليروى لي تفاصيل حياة سامى وسامية .. كل تفاصيل طفولتهما .. التفاصيل الدقيقة الواهية .. فرجأ استطلعت من خلال هذه التفاصيل أن اكتشف سرهما .. سر العقدة النفسية التي ترقد في العقل الباطن ، وتسيطر على تصرفاتهما .

وكان يجب ان اتصرف بسرعة اذا أردت أن أصل الى تناء قبل أن يهل موعد رحيلى عن باماكو .. فقررت أن أبحث عن سليم في نفس الليلة .

وقد عدت من زيارة جبل كوبالا بصحبة سامى ، في الساعة الثامنة مساء .. وألح على سامى أن نذهب الى مقهى « فالى » ، ولكنى اعتذرت بأنى متعب ، والى فى حاجة الى النوم ..

وتركته وصليت الى الفندق .. وأرسلت أحد الخدم الى سليم فى بيته ، وبمعه رسالة يسلمها اليه ، أرجوه فيها أن يأتى لمقابلتى .. حالا ..
وعاد الخادم ..

وجاء وراءه سليم .. ينظر الى يعنين واسعتين ، متسائلا عن
سر هذه الدعوة المفاجئة .. وصعدت به الى غرفتي ، وقلت له
بصراحة ان حالة أخته سامية وأخيه سامي ، من الحالات الخطرة
التي قد تؤدي الى الجنون الكامل .. وان علاجهما يعتمد على
معرفة السبب الذي أدى بهما الى هذه الحالة .. والسبب لا يد
أنه يرجع الى طفولتهما .. حادث وقع لكل منهما ، أو ظروف
أحاطت بهما أيام الطفولة .. ثم طلبت منه أن يروي لي كل
تفاصيل حياتهما ، فربما كانت فيها تفاصيل يجهلونها هما الاثنان
.. تفاصيل حوادث سقطت في عقل كل منهما الباطن ، واختفت
عن عقله الواعي .. فاذا عرفنا هذه التفاصيل فربما استطعت
علاجهما

ولم يكن الأمر سهلا على سليم ، فهو لا يعرف التفاصيل
التي يمكن أن تساعدني على علاج سامية وسامي .. فكان
يستطرد في حديث طويل عن والده وعن عائلته لا يخرج عما
سمعت من أخته وأخيه .. وكل الفرق أنه لم يكن فخورا بأبيه
كما كانا ، أنه يتحدث عنه بكثير من الامتناع ويحمله مسئولية
إضاعة ثروة العائلة ..

واقضى أكثر من ثلاثة أرباع ساعة وأنا أسمع منه هذا
الكلام العادي ، الى أن قال وهو يتحدث عن أخته سامية :
— لقد كان أبي يدلها الى حد أنه أقنعها بأن لها صوتا
يمكن أن تغني به .. و ..
وقاطعت في فرح كاني عثرت على أميتي :



- هل تقول انه كان لها صوت جميل .. ؟
قال وهو ينظر الى دهبيا :
- أبى كان يستقد ذلك .. بل انه كان يدعو لها مطربا من
بيروت يقيم معنا ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام .. يقيم على
حسابنا ، وقيض أجرا كبيرا .. ليدرب سامية على الغناء .
قلت فى لهفة :
- وهل كانت تغنى ؟
قال :
- طول النهار كانت تغنى .. لم تكن تتوقف عن الغناء
الا عندما تنام ..
ثم لوى شفتيه ، وقال :
- صوتها فطيع ..
قلت :
- أقصد هل كانت تغنى فى حفلات عامة ؟
قال كأنه يعاتبنى :
- لا طبعا .. لا أحد يستطيع أن يطبق غناءها .. و ..
وسكت برهة ، ثم قال ، كأنه تذكر شيئا :
- نعم .. لقد غنت فى حفلات عامة .. عند ما كنا فى لبنان
كان أبى يدعوها الى الغناء فى الحفلات التى تنظم لتكريمه ..
قلت بسرعة :
- وهل كانوا يصفقون لها ..
قال :

— طبعا .. انهم كلهم مناققون .. كلهم كانوا يبتزون
أموال أبي .. ان هذه الحفلات كانت تقام خصيصا لابتزاز
أمواله .. وطبعا .. اذا غنت ابنته ، فيجب أن يصسفقوا لها ..
للصوص .. لقد سرقوا أموال أبي !
قلت :

— وهل كانوا ينشرون صورتها في المجلات اللبنانية ..
قال :

— طبعا .. وكانوا يسمونها أحيانا مطربة افريقية .. وأحيانا
مطربة المهجر .. وأحيانا المطربة الصغيرة .. بل ان أحد المنافقين
ممن يكتبون في هذه المجلات ، قارن بين صوتها وصوت
أم كلثوم .. تصور .. وطبعا كان أبي يدفع .. يدفع بسخاء ..
يجنون !

قلت :

— كم كان عمرها ..

قال :

— عشر سنوات ..

قلت :

— وهل لا تزال تغنى ؟

قال وهو ينظر الى في دهشة :

— لا ..

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لأنى منعته من الغناء ، بعد موت والدى !
قلت وأنا أسجل فى مذكراتى الطيبة ، ما يدور بيننا من

حديث :

— لماذا منعته من الغناء ؟

قال فى حدة كآله تضايق من أسئلتى :

— لأنها لم تحس بالمصيبة التى حلت بنا .. لم تستطع أن
تقدر أننا أفلسنا .. ظلت تعيش نفس الحياة التى كانت تحياها
أيام والدى .. تضى يومها كله فى الغناء ، وسماع امطوانات
أم كلثوم وعبد الوهاب .. ولا تعمل شيئا آخر .. لا تريد أن
تشتغل فى البيت .. لا تريد أن تدخل المطبخ .. فمنعته عن الغناء
.. كنا فى حاجة اليها لتعمل معنا .. لتبحث معنا عن لقمة العيش ..
لتوفر علينا على الأقل أجر الخادم .

وجذب نفسه عميقا من صدره ، ثم استطرد فى حدة ،
ولهجته اللبناية تكاد تشق جدار الغرفة :

— تصور .. لقد ضبعتها يوما تبيع بعض أثاث البيت ..
أتدري لماذا .. لتأخذ ثمنها وتحوله الى بيروت ثمنا لبعض المجلات
الفنية التى تصدر هناك .

قلت :

— وماذا فعلت ؟

قال :

— ضربتها ..

٤

قلت :

— وكيف أقنعتها بالكف عن الغناء ؟

قال في حدة :

— بالضرب .. كنت أضربها كل يوم .. وفي مرة شجعت رأسها .. وفي مرة أخرى شققت شفتها .. لقد كنت أضربها بقسوة ، وكان هذا لصالحها ، وصالح العائلة التي وجدت نفسها فجأة ، لا تملك ثمن رغيف عيش ..

قلت ، دون أن أعلق على كلامه :

— لقد لاحظت أنها بكّت واثابها حالة هستيرية عند ما سمعت أسطوانة أم كلثوم .. فهل تصيبها هذه الحالة دائما ؟
قال :

— نعم .. كلما سمعت أم كلثوم ..

قلت :

— منذ متى ؟

قال :

— بعد سنوات طويلة من موت أبي .. كنت قد جمعت كل الأسطوانات التي يحتفظ بها أبي ، وكل المجلات والجرائد العربية ، وكل دواوين الشعر .. جمعت كل ذلك ووضعت في دولاب واحتفظت بالفتاح في جيبى .. حتى لا أشغل أحدا من العائلة عن السعى الى لقمة العيش .. عن معاوتى في العمل .. كنت أريد أن أشعرهم بأننا بدأ الحياة من جديد .. اقنا بثابة مهاجرين جدد .. والمهاجر الجديد لا يضيع وقته في سماع

الأسطوانات ، وقراءة المجلات ، وكتابة الشعر .. الشعر ..
الشعر .. يخرّب بيته ها الشعر .. على صرمايتي ها الشعر .
وضغط على أسنانه حتى برزت عظام فكّيه من تحت جلد
وجهه .. ثم تنهد ، كأنه ينفث النار في وجه كل الشعراء ،
واستطرد قائلاً :

— وبعد سنوات .. سنوات طويلة ، خلت خلالها أن
سامية قد نسيت الغناء .. خطر لي يوماً أن افتح الدولاب
وأسمع أم كلثوم .. وما كنت أضع الأسطوانة فوق التونراف
حتى لمحت سامية ترتعش .. ثم عند ما انطلق صوت أم كلثوم ،
بدأت سامية تبكي .. ثم صرخت .. وقامت تجرى ، وهى فى
حالة هستيرية ..

قلت :

— وماذا فعلت ؟

قال :

— لا شيء .. كنت أعلم أن سامية مجنونة .. وقد أدت
أسطوانة أم كلثوم عند ما جئت لزيارتنا ، لأريك جنونها .. و ..
ولكن لماذا تسأل كل هذه الأسئلة ؟

ورفعت رأسى إليه ، وقلت وأنا ابتسم ابتسامة كبيرة :

— هذه عقلة سامية ..

قال وهو يرفع حاجبيه فى دهشة :

— ماذا قصد ؟

قلت فى هدوء :

— هذا هو سر حالتها الشاذة .. ان أختك قضت طفولتها
في حلم كبير .. حلم سيطر على كل دقيقة من عمرها .. كانت
تحلم بأن تكون يوما مطربة كبيرة كام كلثوم أو ليلى مراد ..
وأن تخرج من باماكو ، هذه المدينة الصغيرة المجهولة ، لتعيش
في بيروت أو في القاهرة .. وتغنى .. ويصفق لها الناس .. وتشر
الصحف صورتها .. وقد جعل والدك من هذا الحلم حقيقة
عاشت فيها سامية فعلا .. غنت أمام الناس .. وسمعت تصفيقهم
.. ورأت صورتها في الصحف .. ثم جئت أنت لتنتزعها
من هذه الحقيقة .. تنتزعها من الحياة .. ولا شك
أنها حاولت أن تقاومك .. ولكن لا شيء كان يساعدها على
المقاومة .. ان أباه الذي كان يحول أحلامها الى حقائق ،
مات .. وباماكو ليس فيها جمهور تغنى له .. وليس فيها
صحف تنشر صورتها .. وكانت تقاوم اليأس .. الذي يصور
لها أنها ستقضى كل حياتها في هذه المدينة .. بلا مجد .. انساق
مجهولة .. مهلة .. لا يصلها بعالمها شيء .. ولا يصلها بأصلها
الممتد الى بيروت ، شيء .. ثم بدأت تضربها .. وقسوت عليها
في الضرب .. فبدأت تخاف .. كانت تخافك أنت أولا .. ثم
أصبحت تخاف أحلامها .. هذه الأحلام التي تتصورها على أنها
حقيقة تعيش فيها .. وضغط الخوف على الأحلام ، فأسقطها في
العقل الباطن .. ولكن الحلم عند ما سقط في العقل الباطن ،
سقط على أنه حقيقة .. حقيقة حياتها .. ولم يجد عقلها الواعي
حقيقة أخرى يعيش فيها .. فاستسلم للعقل الباطن .. أصبح

يعيش في نفس هذه الحقيقة الوهمية .. ولكنه — أى العقل
الواعى — لا يستطيع أن يجاهر بهذه الحقيقة ، لأنه يخاف منك
.. يخاف من الضرب .. فكانت النتيجة أن شل .. أصبح أسيرا
لواقعة معينة راقدة في العقل الباطن .. لم يكبر بعد ذلك .. لم
يتقدم به العمر .. انه لا يزال يعيش في عمر العاشرة عند ما
وقعت سامية تغنى أمام الجمهور في بيروت .. ولكنه — كما
قلت لك — لا يستطيع أن يواجه هذه الحقيقة .. فتجاهلها ..
يعيش في كل ما حولها ، الا لحظة ان وقعت سامية لتغنى أمام
الناس .. هذه اللحظة يتجاهلها العقل الواعى ، لأنه خائف ..
خائف منك .. لذلك فعند ما تحدثت سامية عن الأيام التي
قضتها في بيروت تذكر كل شيء ، الا ما يتعلق بحلمها الكبير ..
انها لا تذكر أنها وقعت أمام الناس وغنت .. ولا تذكر أنهم
صنفقوا لها ، ولا تذكر أن الجرائد نشرت صورتها .. لا تذكر
شيئا من ذلك .. لأن الخوف من ضربك وقسوتك .. جعل عقلها
يهرب من بقايا حلمها ..

وقال سليم وكأنه لم يفهم شيئا مما قلت :
— ولكن لماذا تبكى وتنهار عندما تسمع صوت أم كلثوم ؟
قلت في بساطة :

— لأن صوت أم كلثوم عند ما يأتينا من الخارج ، لا من
داخلها .. داخل أحاميسها .. يثير المعركة من جديد بين عقلها
الواعى وعقلها الباطن .. يحاول عقلها الواعى أن يتحرر من عقلها
الباطن ، ويجرى وراء صوت أم كلثوم ، لأنه حقيقة ليست

وهمية .. حقيقة تنبعث من أسطوانة .. ولكن سامية لا تحمل
هذه المعركة .. انها أضعف منها .. فتنهار !

وقال سليم في حسان عجيب ، وواضح أنه لم يفهم كل
ما قلته :

— هل كل ذلك لأنى كنت أقسو عليها بالضرب .. انى
مستعد أن اعتذر لها .. أن أكفر عن سيئاتى .. أن أدللها .. أن
أعطيها كل ما تريد ! ..

قلت :

— هذا لا يكفى .. أتدرى ماذا يحدث الآن لو تحررت من
الخوف منك ؟

قال :

— ماذا ؟

قلت :

— سيفصح عقلها الباطن عن نفسه عن طريق عقلها الواعى ..
وأغلب الظن أنها فى هذه الحالة ستتصور نفسها أم كلثوم ..
وتأخذ فى الغناء فى كل مكان .. فى الشارع .. فى البيت .. وكلما
وجدت أمامها مجموعة من الناس .. تغنى على أنها أم كلثوم ..
وتعتقد أن الناس يعتبرونها فعلا .. أم كلثوم ..

قال والدموع فى عينيه :

— ماذا تفعل .. كيف نعالجها .. كيف نشفيها ..

قلت :

— لا أعرف بعد .. ولكننا لن نستطيع أن نشفيها إلا إذا ساعدتنا هي على شفاء نفسها .

ونكس سليم رأسه ، وتهد في يأس .. ثم قام واقفا وألقاه .
تثن كانه قد شاخ ، وقال في صوت يائس :
— أظن يجب أن أعود الى البيت ..
قلت في رجاء :

— امكث قليلا .. بقي أمامنا سامي .. لم نحل عقده بعد !
قال في اعياء :

— الساعة الواحدة صباحا .. وأنا متعب !
قلت :

— تحمل .. من أجل سامي .. مآتي اليك يفتجال شاي ..
وعاد سليم وجلس في مقعده صامتا .. وخرجت من الغرفة
أبحث عن خادم ، يأتي لنا بالشاي .. ثم عدت ، وقلمت الى
سليم صندوق البسكوت الذي أحتفظ به دائما ، وقلت :
— بسكوت من مصر !

ومد سليم يده في تكاسل ، دون أن يبدو عليه الترح عندما
سمع اسم « مصر » كما يحدث دائما لأخته وأخيه .. والتقط
قطعة بسكوت وضعها بين أسنانه ، وهو يقول :
— لقد قلت لك كل شيء عن سامي .

قلت :

— لا .. ليس كل شيء .. لا بد أن هناك تفاصيل أخرى
فأنت أن تذكرها ..

وسكت سليم ، يحاول أن يتذكر ..
وقاجأته بسؤال أحاول أن أعينه به على التذكر :
— كيف كانت والدتك تعامل سامى ..
ورفع الى رأسه فى دهشة ، كأنه يسألنى عن سر هذا
السؤال ، ثم أرخى عينيه ، وقال فى فتور :
— كما كانت تعاملنا ..

وقضم قطعة بسكوت ، ثم عاد ورفع رأسه ونظر الى بكل
عينيه ، وقال كأنه يتهمنى :

— هل قال لك سامى شيئا بخصوص والدتنا .
قلت وأنا ابتسم كأنى أرشوه بإبتسامتى :
— لا .. لقد حدثنى عن كل شيء الا عن والدته .. لذلك
سألتك !

وعاد سليم ونكس رأسه ، وسكت مدة طويلة .. تشاغل
خلالها بأكل البسكوت ، ثم قال :

— ربما كانت تقسو عليه أكثر منا .. ولكنها لم تكن أما
قاسية .. كانت خير السيدات .. سيدة عظيمة حقا .. لو أن أبى
ترك لها ادارة أعماله لما أفلسنا .. وقد كانت تعرف أننا سنفلس
.. كانت دائما تحذر أبى من اسراقه وجنونه ..

ولاحظت الفرق الكبير بين اللهجة التى يتحدث بها سليم
عن والدته ، واللهجة التى تحدث بها سامى عنها ..

ان سليم معجب بأبيه ، ويحترق أباه ..
وسامى معجب بأبيه ، ويحترق أمه ..

ودون هذه الملاحظة في مذكراتي الطيبة ووضعت تحتها
خطين ..

وعدت أمال سليم :

— ولكن لماذا كانت تقسو عليه ؟

واقهر سليم كأنه يدافع عن أمه :

— لأنه كان مشاكسا .. كان مجنونا .. كان يتحداها دائما ..

وكان يقضى وقته يلعب مع الأطفال الزوج في الشارع .. في

التراب .. كانت أمي تحاول أن تجعل منه انسانا متمدينا ..

كانت تصنع له الثياب الأنيقة بيديها .. ولكنه كان ينهب

بالثياب الأنيقة ليلعب مع الأطفال الزوج في التراب ..

قلت وقد أحسست أني بدأت أمسك بطرف الحيط :

— هل كان يلعب مع الأطفال الزوج ؟ .. حدثني عن

هذه الفترة !

وأمال سليم رأسه الى الوراء ، وضغط بأصابعه على

جبينه ، يحاول أن يتذكر ، ثم قال :

— لقد كان قاسيا في لعبه معهم .. كان يضربهم .. يل انه

لمن مرة أخذ الأطفال في ذراعه بخنجر كان يلعب به .. ورغم

ذلك كان الأطفال الزوج يحبونه .. ويتنظرونه .. وكان يسرق

من البيت قطع الشيكولاتة والحلوى ، ويحملها اليهم ، وبعد أن

يوزعها عليهم ، يبدأ في اللعب معهم .. ويتطور في لعبه الى حد

القسوة ..

وسكت سليم ..

ولاحقته بسؤال آخر :

— ماذا كان موقف الزوج الكبار منه .. ماذا كانوا يفعلون وهم يرونه يضرب أولادهم ، ويقسو عليهم ؟
قال :

— انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. سامى أبيض .. ابن سيد .. ولا يستطيع زنجى أن يمسه و ..
وسكت سليم قليلا كأنه تذكر شيئا جديدا ، وقال فى صوت هالم كأنه يحدث نفسه :

— كانت هناك امرأة .. امرأة زنجية متوسطة العمر .. رأيتها كثيرا تاتى الى المكان الذى يلعب فيه سامى .. وكانت تناديه ، فيذهب اليها ، ويجلس بجانبها على الأرض .. وكانت تعطيه بعض الهدايا الصغيرة .. لعبا وعرائس من التى يلعب بها الأطفال الزوج .. ثم تحدث اليه .. تحدث اليه طويلا ، وهو هادىء بجانبها على غير عادته .. وقد سألته عنها مرة فقال بلا اهتمام انه لا يعرفها .. والها تروى له قصصا جميلة من أساطير الزوج .. وكان سامى يردد دائما أسطورة سوقدياتا مؤسس مملكة مالى .. أسطورة خرافية تروى كيف استطاع طفل كسيح أن ينتصر على وحوش الغابة .. وعلى أعداء قبيلته .. وأن يضم كل القبائل ويؤسس مملكة حاربت الفرنسيين ستين عاما ..

وتنهى سليم وقال فى صوت غريب :

— كانت امرأة غريبة ..

قلت فى لهفة :

— وهل عرف والداك خبر هذه المرأة ؟

قال سليم :

— لقد قلت له يوما عنها .. كنت قد تشاجرت مع سامى ،
وظننت أنى لو أبلغت والدى بقصة هذه المرأة ، فسيضربه ..
سيضرب سامى ..

قلت :

— وماذا فعل ؟

قال :

— اهتم أول الأمر .. وأرسل أحد موظفيه ليتحرى خبر
هذه المرأة ..

قلت واللهفة تشتد بى :

— ثم ..

قال :

— ثم لا شئ .. قال لى والدى بعدها بأيام ان هذه المرأة
كانت تعمل خادمة عندنا .. وكانت بمثابة خادمة خاصة لسامى ..
ثم طردت .. وانها لذلك تحب سامى ، وتحب أن تراه ..

قلت :

— وماذا قالت والدتك ؟

قال فى بساطة ، وهو لا يدري ما أسمى الى معرفته :

— نفس الكلام ..

قلت :

— ألم تلاحظ شيئاً بعد ذلك ؟

قال وهو يحاول أن يتذكر :

— لم ألاحظ شيئاً ، إلا أن هذه المرأة الزوجية لم تعد تظهر في المكان الذى يلعب فيه سامى .. ربما خافت من الموظف الذى أرسله لها والذى ..

وسكت سليم ..

وبقيت برهة أفكر فى أن أواجهه بالحقيقة التى اكتشفتها من حديثه .. ولكنى ترددت .. فلم أكن واثقاً أن ما اكتشفته هو الحقيقة .. كنت لا زلت فى حاجة الى بعض الأسئلة الأخرى ، قبل أن أثق فى اكتشافى ..

وعدت أسأله :

— كم سنة قضاها والدك فى افريقيا قبل أن يتزوج والدتك ؟

ونظر الى سليم فى دهشة ، كأنه لا يفهم جدوى هذا السؤال ، ثم هز رأسه فى استسلام ، وأجاب :

— أكثر من عشر سنوات ..

قلت بسرعة :

— هل كان والدك ناصح البياض .. أم كان لونه يميل الى

السمر ؟

واشتدت الدهشة فى عيني سليم ، وقال فى حدة :

— لماذا .. لماذا هذا السؤال ؟

قلت فى هدوء :

— أرجوك .. أجبني !
قال وهو ينظر في وجهي بكل عينييه ، كأنه في حالة تحفز :
— كان أبيض .. ناصع البياض .. في لوني .. ولكن لماذا
تسأل ؟

قلت وأنا أبسم كأنى أسمح على أعصابه :
— لأنى لاحظت أن سامى يختلف في لونه عنك ، وعن
سامية .. انه أسمر !

وهب سليم واقفا ، وصرخ في وجهى وعيناه غاضبتان :
— فهمت الآن ما تشكر فيه .. وأؤكد لك أنه خطأ .. خطأ
مائة في المائة .. لقد كانت هناك اشاعة سمعتها وأنا صغير تقول
ان والدى تزوج من لحدى الزنجيات .. ولكنها كانت اشاعة
كاذبة .. ماتت في حينها ..
قلت في هدوء :

— هل أنت متأكد أنها كانت اشاعة ؟
قال :

— متأكد .. وواثق .. ومؤمن .. ان هذه الاشاعة تطلق
على كل مهاجر أعزب يأتى الى افريقيا .. والمهاجرون العزاب قد
يختلطون بالزنجيات ، ولكنهم لا يتزوجون منهم .. ولن أسمح
لأحد بأن يلطيخ سمعة والدى بعد أن مات ..
قلت في هدوء وحزم :

— أنا لا أسمى لتلطيخ سمعة والدك .. أنا غريب .. ولن

ترانى هنا بعد أيام .. وكل ما يهمنى هو أن أعرف الأسباب التى أدت الى حالة سامى حتى أستطيع علاجه ..
ونظر الى سليم فى تردد ، ثم بدأ يهدأ ، وعاد يجلس فى مقعده وهو يتهدد ويذفر أنفاسه فى ضيق ..
وقال وهو يحاول أن يبدو هادئاً :

— صدقنى يا دكتور .. ان ما خطر ببالك بعيد عن الحقيقة ..
وسامى أخى من أبى وأمى .. لقد كانت أمى تهسو عليه لمصلحته لا لأنه ليس ابنها .. ولكنه عندما كان يمرض كانت تجن عليه .. وكانت تنام معه فى فراشه .. وتعالجه بنفسها .. ولا تتركه الا بعد أن يشفى .. مستحيل أن تعمل امرأة كل ذلك لطفل ليس ابنها .. وأنا .. أنا لم أشك يوماً فى أن سامى أخى .. شقيقى .. من أبى وأمى .. كان يجب أن أعرف ، ولو بلحساسى ، اذا لم يكن شقيقى ..

وكان سليم يتحدث بصدق وحرارة .. وبدأ الجانى بحقيقة اكتشافى يتزعزع من جديد .. وكان يجب أن أتأكد قبل أن أخطو خطوة واحدة فى علاج سامى .. لو خطوت خطوة واحدة على أساس استنتاج خاطئ ، فلن أصل الى شئ ، ربما أسأت الى سامى ، وقلت له الى حالة أخطر مما هو فيها ..

ومضت فترة طويلة وأنا أفكر وأدخن سيجارة ، وسليم يجلس فى شفتى كاله فى انتظار حكم البراعة .. براعة والده .. أو الاعدام !

وفجأة خطر لى خاطر جديد ..

وقلت وأنا أكثر لهفة :

— هل تذكر الفتاة الزنجية التي كانت ترقص مع سامي ،
عندما شاهدناه في الغابة ..

وعقد سليم ما بين حاجبيه ، ثم انطلق بعد أن تذكر :
— بيندا ..

قلت :

— أهذا اسمها ؟

قال :

— نعم .. بيندا .. انها ابنة الكاياكا .. ابنة الثانية ..
قلت في فضول :

— من هو الكاياكا ؟

قال :

— انه زعيم القبيلة .. الزعيم عندهم يسمى كاياكا ..
قلت :

— هل تذكر هذه المرأة الزنجية ، التي كانت تروى لسامي
في طفولته أساطير الزوج .. أقصد ، هل تذكر وجهها ..
شبهها ..

وعقد سامي حاجبيه ، ثم قال بعد برهة :

— نعم .. أذكرها ..

قلت :

— هل تعتقد أن هناك شيئا بين هذه المرأة ، وبيندا ابنة
الكاياكا .. أي شبه ولو بسيط ؟

واحتارت النظرات في عيني سليم ، ومضت فترة طويلة ،
وهو متردد ، كأنه يضع الوجهين ، وجه ييندا ووجه المرأة
الأخرى ، بجانب بعضهما ، في خياله .. ثم قال في دهشة كبيرة :
— نعم .. هناك شبه .. شبه كبير .. كيف عرفت ؟

قلت ، وأنا ابتسم :

— لم أعرف .. ولكنني استنتجت !

وظل مبعلقا بعيني في وجهي ، برهة .. ثم لكس رأسه في
امتسلام ، كأنه أحس بأن جبل الحقيقة بدأ يلتف حول عنقه ..
واستطردت قائلا :

— أريد أن أقابل ييندا ..

ورقع رأسه في ذمري ، وقال :

— لماذا ؟

قلت في حزم :

— لا بد أن أقابلها .. من أجل سامي !

ولكس رأسه وهو يهزها موافقا ..

قلت :

— وأريد أن أقابل الكاباكا ..

وهز سليم رأسه موافقا ، دون أن يتكلم .. ولهض من على
مقعده في ببطء .. كأنه يئن .. كأنه شاخ .. وقال في صوت
يائس :

— غدا سأمر عليك الساعة الثامنة لنذهب الى الغابة ..

قلت وأنا أنظر في ساعتى :

— الساعة الآن الثالثة صباحا .. مر على في الساعة
العاشرة .. الى في حاجة الى النوم ، حتى أستطيع أن أعمل ..
وغدا يوم عمل شاق ..
وهز رأسه موافقا ، دون أن يتكلم ..
وودعته حتى باب غرفتي وأنا أبتسم له مشجعا ..



ونمت ليلتها وخيالى يواجه أضخم عقدة نفسية في افريقيا ..
عقدة الأبيض ، والأسود ..

جاء سليم الى غرفتي بالفندق في الساعة العاشرة تماما ..
كأنه قضى الليل كله واقفا على بابي ، الى أن دقت الساعة
العاشرة ، ففتح الباب .. وكان واضحا أنه لم يتم .. وجهه
باهت .. وبصمات الأرق تحت عينيه .. ولم يتكلم .. حياني
تحية الصباح بتمبحة لم أتبين كلماتها .. ثم جلس صامتا ورأسه
ملقى فوق صدره ، ينتظرني الى أن أتهى من ارتداء ثيابي ..
وكنيت أعلم سر المذاب المرتسم على وجهه .. ان المشكلة
بالنسبة له لم تعد مشكلة سامي ، بل مشكلة أيه .. هل تزوج
أبوه من امرأة زنجية كما استتجت .. وهل سامي من أم زنجية ؟
والمشكلة كبيرة بالنسبة له .. مشكلة تمس سمعة أيه ،
وكرامة العائلة كلها .. قالبيض الذين يتزوجون من زنجيات ،
لهم وضع خاص في المجتمع الاقريقي .. وضع يشين الكرامة ..
ولم أحاول أن أخفف عن سليم .. فقد كنت أعلم أيضا أن
الحل الوحيد هو أن يكتشف معنى الحقيقة ..

ووضعت على رأسي القبعة الفلين الكبيرة .. قبعة الرحالة
متناقلي يكتشف اقريقيا .. ثم وضعت ذراعي في ذراع سليم

وأنا أيتسم له مشجما .. وخرجنا من الفندق ، وركبنا سيارته
في طريقنا الى الغابة للبحث عن ييندا ابنة الكاياكا .. زعيم
القبيلة ..

ان الغابة في النهار أكثر صمًا ، كأن طيورها ووحوشها
لا تصحو الا في الليل .. حتى الأهالي الذين أراهم على جانبي
الطريق يبدون نياما .. يسرون في خطوات زاحقة صامتة ،
يعكس ما رأيتهم يرقصون في الليل .. كأنهم يخافون النهار ..
ولم أخف الغابة في النهار .. ولكنني شعرت بالرهبة المثيرة ..
ان فيها شيئًا قويًا يجذبك اليها .. شيئًا يكاد يقتلني من داخل
السيارة ، لأسير على قدمي بين أشجارها .. أسير الى بعيد ..
الى بعيد جدا .. لأصل في النهاية الى سر مجهول .. انه نفس
الشعور الذي تحص به عندما تبطلق في مياه البحر فتجس أنك
تريد أن تلقى نفسك فيها .. ونفس الشعور الذي يجذبك عندما
تعد بصرك الى أفق الصحراء فتجس أنك تريد أن تتوغل فيها
حتى تصل الى الأفق .. ان للأرض قوة جاذبية نفسية ، لا تقل
عن قوة جاذبيتها المادية ..

وسليم يقود السيارة صامتًا .. وأنا ألتفت الى كل شجرة
أمر بها كأنني سأجد خلفها أسدا أو فيلا أو على الأقل قردا ..
ثم أياأس من الالتفات خلف الأشجار .. فأعتدل في جلستي
وأحاول أن أركز ذهني في حالة سامية ، وسامى ..

لقد اكتشفت عقدة سامية .. وربما كانت هذه العقدة هي
عقدة كل بنات المهاجرين في إفريقيا .. هذه الفتاة البيضاء التي



1914

تجد نفسها في مجتمع ضيق ، متأخر ، يضيق عن أحلامها ، وعن ثقافتها .. فتعيش كل يوم وهي تفكر في العالم البعيد .. العالم الواسع .. العالم الأبيض .. وتحاول دائما أن تنقل مظاهر هذا العالم الى عالمها الضيق .. فتقتبس منه آخر الأزياء ، وآخر الأغاني ، وآخر الرقصات .. وتحرص على أن تتبع أخباره .. انها تعرف عن تايرون باور أكثر مما يعرف بنات باريس ، وأكثر مما يعرف بنات القاهرة .. وكل ذلك لا يحل عقدتهن ، بل يزيدهن إحساسا بها ..

ولكن عقدة سامية كانت أكبر من ذلك نتيجة للظروف التي أحاطت بها ، حتى سببت لها توقف نمو شخصيتها ، وتركها تعيش في سن العاشرة ، بعد أن تمت العشرين .
.. المهم ..

كيف أستطيع تخليص سامية من حالتها في خلال أربعة أيام ، هي كل ما بقيت لي قبل أن أغادر باماكو ؟
هذا ما لم أعرفه بعد ..
وسامى ..

ان سر عقده - على الأرجح - أنه ولد من أب أبيض وأم سوداء .. وكل ابن يولد من أب أبيض وأم زنجية ، هو ابن معقد .. وسر عقده لا يرجع الى سبب فسيولوجي .. ليس لأن اختلاط الدم الأسود بالدم الأبيض يسبب مرضا عضويا ينتج عنه عقدة .. لا .. ولكن لأن المجتمع فرض على هؤلاء الملونين معاملة خاصة تعقد نفوسهم .. ولأن اختلاف مجتمع الأب عن

مجتمع الأم ، اختلافا كبيرا يسبب تصارعا في نفسية الابن بين مجتمعين .. وينتهى التصارع بعقدة ..

وهؤلاء الأبناء يسمون في افريقيا « ماتيس » .. وتسمع لفظ « ماتيس » من أفواه الافريقين ، ومن أفواه البيض ، يشوبه رقة احتقار وازدراء ..

والماتيس يكونون مجتمعا خاصا في افريقيا .. ليس مجتمعا زنجيا ، وليس مجتمعا أبيض .. انما هو مجتمع « وسط » .. وأفراده يقفون دائما في « الوسط » .. جمالهم وسط .. ليس جمال الزوج ، ولا جمال البيض .. ذكاؤهم وسط .. ليس ذكاء الزوج ولا ذكاء البيض .. وعواطفهم وسط .. لا يستطيعون أن يتحمسوا للبيض ، ولا أن يتحمسوا للزوج .. وتقاليدهم وسط .. خليط من تقاليد البيض وتقالييد الزوج .. وحتى لهجتهم وسط .. خليط من لهجة الزوج والبيض .. وديانتهم وسط .. انهم يؤمنون بالمسيح أو بمحمد بأحاساس وثى .. ويؤمنون بالوثنية بأحاساس مسيحية أو اسلامية .. وثقافتهم وسط .. ليسوا مثقفين ولا غير مثقفين .. و ..

وهذا « الوسط » لم يختره هؤلاء الأبناء .. انه ليس موقفا يقفون فيه باختيارهم .. ولكنه مفروض عليهم .. فرضه عليهم تصارع مجتمعين مختلفين .. صراع بين مجتمع البيض ومجتمع السود ، يدور من حولهم ، ويدور أيضا داخل نفوسهم .. وينتهى بهم الى هذا الموقف الوسط .. انه موقف أشبه بالسجن لا يستطيعون الفرار منه .. لا يستطيعون أن يندمجوا بكيانهم

وعواطفهم داخل مجتمع البيض ، ولا داخل مجتمع السود ..
والبيض ينظرون اليهم من خلال قضبان السجن بازدياء ولا
يثقون فيهم لأنهم ليسوا منهم .. والزنوج أيضا ينظرون اليهم
في شك وريبة لأنهم ليسوا منهم .. والجميع يقلبون شفاههم في
تأفف ويهسون .. ماتيس !

والماتيس ليسوا في افرقيا وحدها .. انهم في كل بلد
مستمر ، وفي كثير من البلاد التي لم تستمر واختلطت فيها
الالوان .. في الهند .. في اليابان .. في أمريكا .. وأيضا في
بعض البلاد العربية ، ففي المملكة السعودية يوجد هذا الوضع
الاجتماعي بين القبائل الأصلية التي نبتت في أرض الجزيرة ،
وبين القبائل والطوائف الدخيلة المستوطنة .. ويسمون هناك
« بنى خيضر » .

ولكن ..

حالة سامي تختلف عن حالة أي فرد آخر في مجتمع الماتيس ،
لأنه لا يدري أنه ماتيس .. لا يدري بعقله الواعي ، ولكن عقله
الباطن يدري .. وكانت النتيجة أن أصبحت له شخصيتان ..
يتغلب العقل الواعي فتسيطر على سامي شخصية الرجل الأبيض
.. ويتغلب العقل الباطن فتسيطر عليه شخصية الرجل الأسود ..
فاذا افترضنا أن هذه الحالة صحيحة ، فكيف أستطيع أن
أعالجه في هذه الفترة القصيرة التي سأقضيها في باماكو ؟
حتى هذه اللحظة ، لم أكن قد وصلت الى طريقة العلاج ..
وكان كل ما يهمني هو أن أكتشف المؤثر الذي تسيطر به إحدى

الشخصيتين على الأخرى .. أن اكتشف المحرك الذى يحرك
الشخصية الزنجية لتسيطر على تصرفات سامى .. متى يحدث
هذا .. وفى أى مناسبة؟! وكنت أعتقد أنى لن أكتشف هذا
المؤثر أو المحرك ، الا بعد أن أقابل بيندا والكاباكا ..

وأوقف سليم السيارة على جانب الطريق .. وشد نقصا
عميقا حزينا من صدره ، ثم نزل ودعانى الى النزول ، وسار
بجانبي صامتا ورأسه ملقى فوق صدره ..

ومشينا بين أشجار الغابة ، ونحن نطأ بأقدامنا الأوراق
الجافة المتساقطة على الأرض ، فتسكس ، وينطلق من تحت
خطواتنا صوت خشن كاله صوت أنين أجش ..

ووصلنا الى القرية ..

فمس القرية التى زرتها بالليل ورأيت سامى يرقص فيها
رقصة الزنوج .. ولكنها تبدو فى النهار كأنها خرابة .. صامته ..
فقيرة .. أكواخها كالخة .. والرائحة الزائقة التى شممتها فى كل
مكان من افريقيا ، تهب على قوية عنيفة .. رائحة أشبه برائحة
السكك المجففة ، وفيها شيء مثير ، يشير أعصابك ، ويحيطك
باحساس من الغموض ، والترقب والحذر ..

وبعض النساء جالسات أمام أكواخهن يقمن ببعض الأعمال
اليدوية ، فى قراخ .. ورجال مستلقون على الأرض أنصاف
عرايا .. نيام أو أشبه بالنيام .. والشمس تصب كل نارها
ونورها على الساحة الفسيحة التى تتوسط الأكواخ فتبدو

الأرض من تحتها فاصعة الضوء كمرآة ترغل عينيك ، وفحيح
اللهب .. لهب الشمس .. يتطلق منها ، حتى تكاد تحس بأخبرته .
وأحكمت وضع قبعتي الكبيرة فوق رأسي ، ومشيت بجانب
سليم نحو كوخ كبير نسبيا يتوسط بقية الأكواخ .. ولمحنا
بعض الأهالي ، فلم يتحركوا من مكانهم .. ولا تكلموا ..
ولكني لاحظت عيولهم البيضاء تنصب على سليم وفي نظراتهم
حقد وكراهية ..

وتقدم سليم من رجل جالس القرفصاء مستندا بظهره على
جدار الكوخ الكبير ، وقال بلهجة أمرة ، وباللغة الفرنسية :
— أريد أن أرى الكاباكا ..

ولم يتحرك الرجل من مكانه .. ولم يتكلم .. أشار برأسه
إلى باب الكوخ الكبير .. ثم بدأ يتشغل عنا بنيش الأرض
بأصابعه ..

وقال سليم في لهجة أكثر احتدادا :

— قم .. وبلغ الكاباكا اتنا هنا ..

ولم يرفع الرجل رأسه إلينا .. خط بأصبعه خطا طويلا في
التراب .. وظل صامتا ..

والتفت إلى سليم وقال في غيظ يحاول أن يكتسه :

— أنهم أكمل خلق الله .. أنهم جثث ..

ولكني لم اقتنع بأن الرجل كسول ، لقد رأيت في تصرفه
نوعا من التعدي .. نوعا من الكراهية الصامتة ...
وفي هذه اللحظة خرج صبي من الكوخ الكبير ، وما كاد

يلمحنا حتى عاد واختفى داخل الكوخ .. وبعد فترة خرج إلينا رجل ضخم الجثة ، صارم ملامح الوجه ، يبدو في الخمسين من عمره ، وربما كان أكبر من ذلك .. ربما كان في الستين .. فان الوجوه السوداء تخفى تحتها عمر أصحابها .. وكان الرجل يرتدى بنطلونا قصيرا لونه كاكي .. وصدره عار ، يبدو قويا رغم بعض الترهل فيه ..

ووقف الرجل أمام باب الكوخ ، مرفوع الرأس وقد وضع يديه في خاصرته ، ونظر الى سليم نظرة قوية ، ليس في قوتها حقد ولا كراهية .. وظل صامتا الى أن تقدم إليه سليم ، ومد يده مصافحا ، والحنى أمامه انحناءة صغيرة ، وقال بالفرنسية في صوت يبدو لزجا مافيه من تفاق :

— صباح الخير ..

وصافحه الرجل في كبرياء ، وهو يتسم :

— صباح الخير ..

ثم قدمنى إليه سليم ، وأعقب قائلا :

— اله من مصر ..

وابتم الكاباكا ابتسامة غلصنة ، وقال وهو يشند على يده ..

— لقد سمعت عن مصر كثيرا .. لى صديق من السنغال

زار مصر وتعلم فى الأزهر .. اله الآن فى مدينة دكار ..

ثم التفت الى سليم قائلا فى لهجة جادة :

— فى خدمتك ؟

وأرخص سليم عينيه وقال وهو يزفر :
— أخى سامى مريض .. والدكتور يعتقد أنك تستطيع أن
تساعده فى علاجه .

وارتفعت نظرة جزع الى عينى الزعيم ، وقال فى لهفة :
— مريض .. مريض بماذا ؟
وقلت فى هدوء :

— انها حالة عصبية ..
وأخنى الزعيم رأسه وهو يتنهد ، كأنه كان ينتظر أن يكون
مرض سامى متعلقا بحالة عصبية .. ثم التفت الى وقال فى
استسلام :

— كيف أستطيع أن أساعذك ؟
قلت بسرعة :

— أريد أن أقابل بيندا ..
ورفع الى عينين مندهشتين وقال كأنه فوجئ :
— بيندا .. ابنتى بيندا .. لماذا ؟
قلت :

— أعتقد أنها تعرف عن سامى أشياء كثيرة لا نعرفها ..
وقد أستطيع أن أصل من خلال ما تعرفه ، الى سر الحالة التى
يعانيها ..

قال وهو ينظر فى عينى كأنه يبحث فيهما عن حقيقتى ،
وشخصيته تطف قوية أمام شخصيتى :
— اتى أعرف عن سامى كل ما تعرفه بيندا .. اسألنى أنا !

قلت في ثبات :

— أفضل أن أسأل بيندا أولا ..

وصمت الزعيم فترة ، وقد حنى رأسه يفكر ثم رفع رأسه
وسألني في صوت حزين :

— هل حالته خطيرة ؟

قلت :

— أعتقد أنها خطيرة ..

وهز رأسه في أسى ، ثم قال وهو يشير الى داخل الكوخ :

— تفضل ..

ودخلنا الى قاعة دائرية فسيحة ، أرضها من التراب ، ملقى
عليه بعض الأبسطة الوطنية ، وسقفها من فروع الأشجار ترتفع
بشكل مخروطي ، وحوائطها من الطين .. وقد انتشرت فيها قطع
غير متجانسة من الأثاث .. مقعد من الجريد .. ومقعد آخر كبير
من الخشب .. وصندوق وضعت فوقه مرتبة .. ومصطبة من
الطين كمصاطب الفلاحين عندما ، فرشت فوقها حصيرة من ألياف
الشجر المجدول ..

وقدم لي الزعيم المقعد الكبير .. وجلس سليم على المصطبة
وهو يزفر ألغاسه ولا يتطلع حوله .. ودخل الزعيم من باب
جانبي ، وعاد وخلفه بيندا ..

انها نفس الفتاة التي رأيتها في مقهى « فاني » .. ورأيتها
مرة ثانية مع صديقتها على شاطئ النيجر .. ورأيتها مرة ثالثة
ترقص مع سامي في ساحة القرية ..

وكانت بيندا حافية القدمين ، وتوب من القماش الملون ..
غير مفصل .. مجرد قطعة من القماش .. تلف جسدها كله حتى
أعلى نهدبها ..

ووقت متعمدا بمجرد أن دخلت ، كآنى أقدم احترامى ..
وصافحتنى رمى تنظر فى وجهى ..
وقلت لها مبتسما :

— أظن أننا التقينا من قبل ..
قالت فى بساطة دوز أن تبسم :
— أظن ..

ثم التفتت الى سليم . وهزت رأسها تحية فى رشاقة
وكبرياء .. وسليم لا يهتم بتحيتها ، ولكنه يحلق فيها بكل
عينيه ، كأنه يقارن بين شبيهها ، وبين هذه المرأة الأخرى التى
كانت تأتى الى سامى فى طبقولته وتروى له أساطير الزوج ..

وعادت بيندا ورفعت عينها الى تسألنى :

— ماذا تريد أن تعرف ؟

والتفت الى الزعيم قائلا :

— هل أستطيع أن أجلس معها على اقتراد ؟

وقل الزعيم عينيه بينى وبين سليم ، وتردد قليلا ، ثم
خرج من الباب الجانبى ..

ولفرت الى سليم أطلب منه أن يخرج هو الآخر ، فخرج
من الباب الذى يؤدى الى ساحة القرية ..

ثم التفت حولى وقلت لبيندا وأنا أشير الى المصطبة :

— تفضلنى ..

وخطت بيندا فى كبرياء ، وجلست ورأسها مرفوع ، وقت لها :

— ان سامى مريض .. مريض جدا .. حالته العصبية قد تؤدي به الى الجنون ..

ولم تندهش بيندا وهى تسعنى .. كأنها كانت تعلم أن سامى يمكن أن يكون مجنوناً .. ولكن طغت على وجهها مسحة من الحزن .. ونكست رأسها ..

وعدت أقول :

— الى أحاول أن أجمع كل تفاصيل حياته ، لعلنى أستطيع أن أعرف سر حالته ، فأعالجها ..

قالت :

— هل هذا ضرورى لعلاجها ؟

قلت :

— نعم .. انه الطريق الوحيد لعلاجها ..

قالت :

— اسألنى ..

قلت :

— كيف التقيت به ؟

وتنهدت قائلة :

— كما يقابل الشبان البنات .. كنت فى المدينة ورأى سامى .. فسار ورأى .. وركبت الاوتوبس الصغير الذى يمر

بقريتنا ، فركب ورائي .. ثم بدأ يكلمني .. ودهشت لأنه كان يتكلم لغتنا ، لغة الولف ، بطلاقة .. كأنه واحد منا .. وأخذنا تبادل الحديث الى أن وصلنا الى القرية .. وأذكر أنه كان يومها يبدو متعبا .. كأنه مريض .. وجهه باهت .. والعرق يتصبب من جبينه .. وألقاه له صوت .. ولكننا بعد أن وصلنا الى القرية ، وقدمته لوالدي ، وجلس بين الفتيان ، بدأ يستريح .. ثم اشترك معنا في رقصة الليل .. واكتشفنا كلنا أنه راقص ماهر .. كأنه واحد منا .. وكل الشبان ، وكل البنسات ، في قريتنا أحبه ..

وسكنت حيندا كأنها اتهمت من الحديث ..

وقلت باهتمام شديد :

— وماذا حدث بعد ذلك .. ماذا حدث في ذلك اليوم ..
قالت :

— ظل يرقص حتى انتهى الليل .. ثم قام في أحد الأكواخ .
ولكننا لم نجده في الصباح .. ولم يره أحد وهو يتصرف ..
وضحكنا كثيرا يومها ..

وسكنت حيندا قليلا وهي تتنهد :

— لقد طلب مني أبي يومها ألا أقابل سامي مرة ثانية ..
قلت :

— لماذا .. هل يحرم عليك والدك مقابلة الشبان ؟
ونظرت الى في دهشة قائلة :

— لماذا يحرم على مقابلة الشبان .. لا .. لم يحرم على
مقابلة الشبان ..
قلت :

— ولماذا حرم عليك مقابلة سامي :
قالت في صوت حائر :
— لا أدري .. ربما كان يعلم ما يمكن أن يصيبني من عذاب
لو أحببته ..
قلت :

— هل أحببته ؟
قالت :

— لقد حاولت منذ اليوم الأول أن أنساه .. أن أقنع
نفسى بأنى لا أهتم به .. ولكنى كنت أتنظره .. اكتشفت ألى
أتنظر بكل دقة من عمرى ، لعله يعود .. ولكنه لم يعد ..
مرت ثلاثة أسابيع ولم يعد ، كنت خلالها أقاوم اهتمامى به ..
ولكنى لم أستطع أن أستمر فى المقاومة ، فذهبت الى المدينة ،
وأخذت أبحث عنه .. بحثت عنه كثيرا الى حد ألى جازفت
ودخلت الأماكن المخصصة للبيض .. الى أن وجدتته فى مقهى
فانى .. ووقفت أمامه .. فنظر الى كآته لا يذكرلى .. فانصرف
غاضبة ولكنى لم أكذ أخرج من المقهى وأسير بعض خطوات
حتى شعرت بقدمين تتبعالى .. والتفت فاذا بى أجدته ورائى ..
وتكرر نفس ما حدث فى المرة الأولى .. حادثتى بلفتة ..
وركب معى الأتوبيس الصغير ، وهو يبدو متعبا مريضا ..

المرق يتصبب من جبينه ، وأقامسه لها صوت .. ثم استراح
بجرد أن دخل القرية .. ورقص معنا .. ثم اختفى عند الفجر ..
ثم استطردت وهي تتهد بعرقه :
— هذا هو حالنا دائما .

قلت :

— حتى اليوم ؟

قالت :

— حتى اليوم .

قلت :

— ألم يأت الى القرية أبدا من تلقاء نفسه ؟

قالت :

— أبدا .. في كل مرة أذهب للبحث عنه .. وفي كل مرة
يبدو كأنه لا يعرفني .. ثم يتبعني ..

قلت :

— هولين انه كان يبدو في كل مرة كأنه لا يعرفك .. عادا

تسرين ذلك ؟

قالت :

— كنت أعتقد أنه يتجاهلني ، حتى لا يلتفت نظر أحد من

البيض إلينا ..

قلت :

— هل تعتقد أني يجبك ..

ونظرت الى في غضب ، كألها تلومنى على هذا السؤال ..
ثم اللفات نظرتها .. ونكست رأسها .. وصمتت ..
قلت كالى أثيرها :

— لماذا لا تريدن الاجابة على سؤالى ..
ورفعت رأسها فى بطة ، وركزت عينيها فى عيني ، وقالت فى
ثبات :

— هل أنت حقيقة دكتور ؟

قلت فى دهشة :

— نعم .. هل تريدن التاكيد ؟

وأخرجت من جيبي جواز سفرى الذى أحمله معى دائما ،
وفتحته أمام عينيها ..

وهم تنظر الى جواز سفرى ، ولكنها عادت تقول وعيناها
مركزتان فى عيني :

— هل تستطيع فعلا شفاءه ، لو عرفت كل شىء ؟

قلت :

— أعتقد ..

وأرخت عينيها عن وجهى ، ونكست رأسها ، وقالت فى
صوت خفيض :

— لقد تزوجنى ..

قلت والدهشة تصرخ فى صوتى :

— من ؟

قالت ودمعة كبيرة تمر من عينيها :

— سامى .. لقد عارض أبى كثيرا فى أن تتزوج .. بقى عام كامل وهو يرفض زواجنا .. ولكنه فى النهاية خشى على من الجنون .. وخشى على من أن أهرب من القبيلة .. فزوجنا ..

قلت :

— هل هو زواج مسجل ؟

قالت فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟

قلت :

— هل هو زواج شرعى .. مسجل فى دفتر حكومى ؟

قالت :

— أبى له حق تزويج أفراد القبيلة .. ان قبيلتنا لا تعتنق الاسلام ، ولا المسيحية .. انا وثيون ..

وهزئت رأسى معتذرا عن جهلى ، وعدت أسأله :

— وهل علم سليم بهذا الزواج ..

ونظرت الى فى غضب وقالت :

— لا طبعا .. لا أحد يعلم الا أفراد قبيلتنا وقد جمعهم أبى وجعلهم يسمون بحق الآلهة ألا يبيعوا بالسر ..

قلت فى دهشة :

— لماذا .. لماذا أصر الزعيم على إبقاء هذا الزواج سرا ..

قالت وهى تنهد :

— لا أدرى .. انه يقول دائما انه يعرف ما لا نعرفه ..

قلت :

— وكيف اتفقتما على الزواج .. ألت وسامى ..
قالت وعينها تسرحان الى بعيد كأنها تجرى وراء
ذكرياتها :

— بعد أن اقتهينسا من الرقص .. قلت له : لتزوج ..
فضحك ضحكة كبيرة ، وشدنى من يدى وذهب بى الى والدى
وطلب منه أن يزوجنا .. وثار والدى ، وعارض .. وظل يعارض
أكثر من سبعة أشهر الى أن وافق .
قلت :

— وهل ظل سامى يختفى عند الفجر ، بعد زواجكما ؟
قالت :

— نعم .. لقد فكرت أن تزوج لاعتقادی أنه لن يختفى
بعد الزواج .. ولكنه ظل يختفى ..
قلت :

— ألم تلاحظى الطريقة التى يختفى بها ؟
قالت :

— لقد كان أحيانا يبقى معى ليلة واحدة ، وأحيانا يبقى
يومين وثلاثة .. كان يبدو رقيقا هادئا كالعصفور .. وعند ما
برقص يسدو قويا ثائرا كالبرق .. وكنت خلال هذه الأيام
لا أنام .. أظل أقبله حتى ينام وهو بين شفتى .. ثم أبقى مفتحة
العينين خائفة من اللحظة التى يختفى فيها .. وفى هذه اللحظة
يقوم من جانبي ويسير وكأنه لا يزال قائما .. وتبدأ قطرات

العرق تنصيب من جيئه .. وأقاسه تتلاحق ، ويخرج من
القرية ، ويمشي في اتجاه المدينة ..

قلت :

— ألم تحاولي مرة أن تمنعه من الخروج ؟

قالت :

— لا .. انى أخافه وهو فى هذه الحالة .. وكنت أتبعه
عندما يخرج .. أمشى وراءه .. وأسبقه أحيانا ، ثم أعود اليه ،
وأضع وجهى أمام وجهه ، فينظر الى بعينين ذاهلتين ، ولا
يعرفنى .. انه وهو فى هذه الحالة لا يعرف أحدا .. لا يعرف
أبى .. ولا يعرف أحدا من فتيان القبيلة ..

وقتهدت ييندا ، واستطردت قائلة فى صوت حزين ، ولهجتها
الفرنسية تكسر فوق شفيتها. المكتنزتين :

— لقد تعبت مرة من المشى وراءه .. فجريت اليه وتعلقت
بذراعه وأخذت أهزه ، وأضرب يدي على صدره ، وأصرخ فى
وجهه .. لعله يفيق .. ولكن عينيه أضاءتا بنظرة غريبة ..
مجنونة .. ثم أخذ يضربنى .. ضربنى بقسوة وهو يلعننى
بكلمات بذينة .. لم يكن يلعننى وحدى .. بل كان يلعن كل
الزواج .. ومن يومها لم أعد أمشى وراءه .. كنت أنكره يختفى
عندما يريد .. وفى كل مرة أقرر ألا أراه ثانية .. ويمضى أسبوع
أو أسبوعان ، وأنا أقاوم ، ثم لا أستطيع أن احتمل شوقى
اليه ، فأذهب الى المدينة للبحث عنه .. وأعود به الى القرية ..

وقلت في لهفة :

— وعند ما تعودين به ، هل يذكر كل شيء يشكما ؟
قالت :

— انه يبدأ دائما بمنزلتي في الاوتوييس الصغير ، كانه يلتقي بي لأول مرة .. وقطرات العرق فوق جبينه ، وأنفاسه لها صوت .. ولكنه يتطور خلال الطريق ، وعند ما نصل الى القرية يصبح كانه واحد منا .. يذكر كل شيء .. بل يعتقد انه لم يغادر القرية ولم يتركني أبدا ..
قلت :

— ألم يحاول والدك أن يفسر لك هذه الحالة التي تتناوب
سامي ؟

قالت والدموع واقفة بين جفونها :

— لا .. وعند ما كان يرى عذابي ، كان يلومني ويحملني المسؤولية ، لأنني خالفت رأيه وصممت على الزواج من سامي ..
قلت في هدوء الطيب :

— شكرا .. هل أستطيع الآن مقابلة الكاباكا ؟

ونظرت الى في تومل .. وبياض عينيها ينير وجهها ..
وابتسامة غريبة ضعيفة تقف فوق أسنانها البيض ، وقالت :

— هل تستطيع حقيقة أن تشفيه ؟

قلت :

— سأحاول ..

قالت :

— عدلى أن تحاول أكثر ..

قلت وأنا ابتسم فى اشفاق :

— أعدك ..

وقامت من جانبى ، وقوامها الرائع .. قوام التاسعة عشرة ..
ملتفت فى قطعة القماش يتحرك نحو الباب ..

وبعد قليل عاد الزعيم الى القاعة .. طويلا .. مهيبا .. رافع
الرأس .. متجههم الوجه .

وأطل سليم برأسه من الباب الآخر ، وعند ما رأى أن بيندا
قد انصرفت ، هم بالدخول .. ولكنى قلت له بالفرنسية ، حتى
يفهمنى الزعيم :

— أرجوك يا سليم .. انتظرنى فى الخارج .

ونظر الى سليم فى ضيق ، ثم نظر الى الزعيم .. وخرج وهو
يضرب الأرض بقدميه فى غيظ :

وملا الزعيم صدره بأفئاسه ثم قال وهو لا ينظر الى وجهى :
— ماذا قالت لك بيندا .. لقد تركتك وذهبت تبكى فى

حجرتها ..

قلت فى صوت هادىء ، كأنها لم تقل لى شيئا مشيرا :

— قالت لى انها تزوجت سامى ..

ورفع الى وجهه بفتة ، وبياض عينيه يضىء وسط سواد
وجهه ، فيبدو ان كأنهما مصباحان قويان معلقان فى الليل .. ثم
عاد وأطفأ عينيه .. وأدار وجهه عنى ، وقال وهو يتشهد :

— هل قالت لك ذلك ؟

قلت وبين شفتي ابتسامة هادئة :

— وقالت لى انك عارضت بشدة فى هذا الزواج ..

وهز رأسه موافقا ، وتمتم :

— نعم عارضت ..

قلت :

— لماذا ..

قال فى حدة غاضبة :

— لآلى لا أوافق على أن تتزوج احدى بنات القبيلة من

أبيض ..

قلت :

— ولكنى لاحظت أنك تحب سامى ..

قال وهو يهز رأسه :

— نعم .. أحبه .. أحبه كما أحب ابنى .

ثم استطرد فى صوت مرتفع :

— ولكن هذا لا يکنى لأوافق على زواجه من ابنتى ..

بل الى عارضت من أجل سامى أيضا ..

قلت :

— ان هناك زيجات مختلطة سعيدة ..

قال :

— مستحيل .. انها كلها زيجات شقية .. والأبناء الذين

يولدون من هذا الزواج كلهم أشقياء .. انى لا أريد أن يكون
حفيدى مايس ..

قلت :

— ولكنك عدت ووافقت على هذا الزواج ..

قال فى أسمى :

— نعم .. وافقت ..

قلت :

— لماذا ؟

قال وهو يزفر أنفاسه كأنه ضاق بالتحقيق معه :

— لأنى خشيت أن تفعل ابنتى مثل ما فعلت .. و ..

وتوقف عن الكلام فجأة ..

واقتطرت أن يتم حديثه ، ولكنه لم يتم .. أطبق شفتيه ،
وظل صامتا ينظر بين قدميه .

قلت أتعجله :

— مثل ما فعلت من ؟

وهب واقفا وقال فى عصبية :

— لن أقول شيئا .. آسف .. لن أستطيع مساعدتك ...

قلت :

— من أجل سامى ..

قال :

— ولا من أجل سامى ..

قلت :

— انه ليس سامى وحده .. ان معه ابنتك بيندا .. ويوم
يشفى سامى سترتاح بيندا ..
قال وهو يدير ظهره لى ووجهه فى الحائط :
— ومن أدرانى آله سيشفى ؟

قلت :

— أوكد لك أن كثيرا من الحالات المشابهة استطعت
شفاءها .. انك لا تعرفنى .. ولكنى معروف فى كثير من الدوائر
العالمية . وأقول لك ذلك بلا غرور .. انما لأنى أريد أن أساعد
سامى .. لقد أحببته أنا أيضا ..

وظل الزعيم صامتا وهو يدير ظهره لى ..
ثم خرج من باب الكوخ ، ورفع رأسه الى السماء .. ونظر
فيها مدة طويلة .. ثم عاد الى ، وقال فى صوت أجش :
— عد الى فى المساء ، اذا أبرقت السماء ..

قلت :

— لماذا ، عند ما تبرق السماء ؟

قال :

— لأنى مرتبط بعهد ، لا تستطيع أن تحلنى منه ، الا
السماء ..

قلت :

— واذا لم تبرق السماء ؟

قال :

— لا تعد ..

قلت :

— انى لا أستطيع أن أفهم علاقة البرق بموضوعنا ..

والتفت الى غاضبا وقال فى حدة :

— هناك أشياء كثيرة لن تفهمها .. افعل كما قلت لك !

ثم هدأ قليلا واستطرد يعتذر عن حديثه :

— آسف .. انى مرتبك ..

ثم مد يده يصافحنى مودعا ..

وقلت :

— الى اللقاء هذا المساء ..

قال :

— اذا أبرقت السماء ..

وهزئت رأسى مستسلما ، وخرجت ، وتأبطت ذراع سليم ،
أسحبه نحو العربة ..

وقال سليم وهو يهرول ليلحق بخطواتى السريعة العصبية :
— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أجلس بجانبه فى السيارة :

— لا تسألنى .. لن أقول لك شيئا الآن ..

وكنت مصمما فعلا على ألا أقول له شيئا ، حتى لا ينقل

ما يسمعه منى الى سامى ، فيفسد خطتى .. أو يشور ويعود الى
الكاباكا ثامرا ليكتب قصة زواج سامى من ابنته .. فأفقد ثقة
الكاباكا ..

وسكت سليم احتراماً لارادتى ..
ثم قلت له وأنا ثامه فى الكارى :
— ماذا يعنى البرق بالنسبة لهذه القبيلة ؟
قال :

— انهم يؤمنون بالظواهر الطبيعية ، وأهمها البرق !
ورفعت رأسى الى السماء ..
ان السماء صافية .. ليس فيها قطعة سحاب واحدة .. والجو
حار .. وليس هناك ما يبشر بالمطر ..
يبدو أن السماء لن تبرد هذه الليلة ..

- ٧ -

أوصلنى سليم بسيارته حتى باب الفندق ، وقلت له وأنا
أهم بالنزول :
— أرجو أن تمر على في الساعة الثامنة ، أو اذا أمطرت
السماء قبل ذلك ..
ونظر الى سليم في دهشة وقال علامة استفهام كبيرة
مرسومة على وجهه :
— لماذا .. ماذا يعنى المطر بالنسبة لنا ؟
قلت وأنا أزل من السيارة بسرعة :
— ستعرف كل شيء .. ليس الآن !
وتركته دون أن أنتظر مزيدا من أسئلته والحلحة ، ودخلت
الفندق .. وقال لى البواب ان سامية مرت على في الصباح ،
ولم تجدى .. وانتظرتنى طويلا ، ثم انصرفت .. وقال الله رآها
تبكى بعد أن طال انتظارها .. ولم أهتم .. فقد كنت أعلم سبب
بكائها .. انها عند ما جاءت ولم تجدى ، اعتقدت ألى سافرت
الى لبنان دون أن أصحبها معى ..
وصعدت الى غرفتى بعد أن نهت على البواب بالإلا يسمع
لأحد بمقابلتى الا لسليم ..



ولم أكن تعباً .. ولكنى كنت فى حاجة إلى تركيز فعنى فى هذه المعلومات التى سمعتها من بيندا ، ولم يكن أهم ما سمعته منها أنها تزوجت سامى ، بل كان الأهم هو ما قالت عن سيطرة شخصيته الزوجية عليه بمجرد دخوله القرية ، لدرجة أنه ينسى الأيام التى قضاها بعيداً عن القرية خاضعاً لشخصية الرجل الأبيض .. ينسى الفاصل بين الشخصيتين ، حتى لو استمر هذا الفصل أسبوعين أو ثلاثة .. ويعود إلى القرية كأنه لم يتركها أبداً .. كأن الأيام لم تمر .. ويبدأ حياته فيها من نفس اللحظة التى تركها فيها .. فإذا كانت زوجته قد سألته قبل اختفائه : «أزاي صحتك» عاد بعد ثلاثة أسابيع وقال لها : «الله يسلمك» .. كأنه سمع سؤالها فى نفس اللحظة التى عاد فيها ..

إنها حالة خطيرة ..

حالة مركبة ..

ولم يكن ما يحيرنى فيها خطورتها ، بل كان ما يحيرنى هو طريقة علاجها وهى بهذه الخطورة ، خصوصاً وأن ليس لدى الوقت الكافى لاتباع الطرق العادية فى العلاج التى قد تستغرق شهوراً طويلة ..

وخيل إلى أن السر الذى يحتفظ به الكاباكا ، قد يعيننى على تحديد طريقة العلاج ..

بل الواقع أنه لم يعد لى أمل فى اكتشاف طريقة العلاج إلا فيما يمكن أن يقوله لى الكاباكا ..

ولكن الكاباكا ينتظر أن تبرق السماء حتى تحله من عهد
قطعه على نفسه ..

وخرجت الى شرفة غرفتي ، أنطلق الى السماء ..
لا أمل ..

السماء صافية كاللبن ..

ليس فيها قطعة سحب .. والهواء واكد ثقيل .. والطبيعة
كلها صامتة ، كأنها نامت تحت تأثير هذا الجو الحار ..

وقضيت الوقت .. أسجل مذكراتي .. وأحاول أن أنام
حيناً .. ثم اخرج الى الشرفة لعل شيئاً حدث في السماء ..
ولم يحدث شيء ..

وفي الساعة السابعة والنصف نزلت الى حديقة الفندق
أنتظر سليم .. وقال لي البواب ان سامي مر على ، وأنه أخبره
بأنى نائمه ، وأنى طلبت ألا يزعجنى أحد ..

وحمدت الله لأنى لم أقابل سامي .. فلم أكن أريد أن أقابله
قبل أن أجمع كل المعلومات التى تعيننى على حالته ، حتى أفاجئه
بها فى أول مقابلة لنا ..

وجلست فى الحديقة أتناول قهوا من الشاي .. وهواء رقيق
بدأ يخفف من حرارة الجو ، ويهز أغصان الأشجار ..

وتلمست الهواء بوجهي ، وأنا أتساءل :

هل يمكن أن يكون هذا مقدمة لهطول المطر ..

من يدري ؟

وجاء سليم ، وسأله بلهفة :

— هل تعتقد أنه يمكن أن تمطر السماء هذه الليلة ؟
ورفع سليم ألفه الى السماء ، كاله يشمها ، ثم قال :
— ربما .. كل شيء يمكن أن يحدث .. إن الطبيعة هنا
كالأهالي أنفسهم .. لا يمكن أن تفهمها .. وتصرفاتها تلقائية
مفاجئة .. ليس لها سبب .. تفرح فجأة .. وبكى فجأة .. وتنام
فجأة ..

ثم نظر الى واستطرد وفي عينيه نظرة توصل :

— ألا تقول لى لماذا تنتظر المطر والبرق ؟

قلت :

— ليس الآن ..

قال :

— هل للمطر والبرق علاقة بخالة أخى سامى ؟

قلت :

— نعم ..

قال وهو يتسم فى استخفاف :

— يبدو أنك أصبحت تؤمن بسحر الزنوج ..

وابتسمت ابتسامة سخيفة ، دون أن أرد عليه .. كنت قد

أصبحت أنا نفسى فى حالة عصبية من طول انتظارى للمطر ..
وفجأة ..

سقطت قطرة ماء على كفى ..

لعلها بدأت تمطر ..

وكنتم فرحتي ، ولم أترك من مكاني ، كاني خلفت ان
لحرت أو تحركت ، أن تعدل السماء عن رأيها ..
وسقطت قطرة أخرى فوق وجهي ..
وتلاحقت القطرات .. وذاذ خليف من المطر .. وانتفضت
واقفا وأنا أصيح :

— انها تمطر .. هيا بنا !
ونظر الى سليم كاني مجنون ، ثم لحق بخطواتي السريعة
لحو السيارة ..
وقلت له وأنا أركب بجانبه ، أطلعه على سرائر نظاري للمطر ،
لأريحه :

— لقد وعدني الكاياكا أن يطلعني على سر كبير ، اذا أحلت
السماء من العهد الذي أخذه على نفسه .. وكانت علامة حله من
عهده هي ظهور البرق ..

وتتم سليم قائلا :

— انه أفاق ..

وقلت كاني لم أسمعه :

— أظن أنها ما دامت قد أمطرت ، فلا بد أن يظهر البرق ..

قال وهو يهز كتفيه في امتعاض :

— ربما ..

وصمتنا ونحن في طريقنا الى الغابة ..

ولم تثر في الغابة هذه المرة نفس الشعور الذي كنت أحس
به كلما مروت بها .. لم أحس إطلاقا بآلي أمر في غابة .. كان

كل احساسى وكل اتبامى ، وكل ترقبى ، محصورا بين شفتى
الكاباكا .. والسر الكبير الذى يحتفظ به بينهما ..
وعند ما اقتربنا من القرية بدأت أسمع صوت قرعات
طبول ..

لم تكن قرعات مرحة سريعة كالتي سمعتها في الليلة الأخرى
، ولكنها كانت قرعات بطيئة .. ضخمة .. رهيبة .. تهل الأرض
وتهل السماء ..

واقتربنا أكثر .. ودقات الطبل تزداد قوة ، وضخامة ،
ورهبة ، وتخلع قلبي ..
ثم بدأت أسمع من خلال دقات الطبل ، أصواتا حزينة ،
مهممة .. تعلو حيناً فتبهدو كالصراخ .. ثم تعود مهممة في
حزن ..

وتركنا السيارة على جانب الطريق .. ونزلنا ورذاذ المطر
يتساقط علينا في رفق .. ومرنا بين أشجار الغابة .. كنت أنا
الذى أقدم سليم هذه المرة .. ثم اختبأت وراء أغصان شجرة
صغيرة تطل على ساحة القرية .. وسليم بجانبى .. وعيناي
نخترقان الظلام ..

كانت القرية غارقة في الليل .. ليس هناك سوى هذا الضوء
الأصفر الخافت ، ينطلق من مصباح صغير موضوع على
الأرض ، بجانب قارع الطبل ..

والأهالي يقفون في دائرة كبيرة وقد اختتمت وجوههم بين
مليات الظلام .. وقارع الطبل يرفع ذراعيه ويهوى بها في قوة ،

.. كأنه يصارع شبحا ، وقطرات المطر تلمع فوق جسده العارى
الضخم ، وتبدو في ضوء المصباح الحافت كعصابات من الماس
الأسفر .. والكاباكا منتصب بقامته المديدة وسط الساحة ،
وقد وضع فوق جسده جلبابا فضفاضا ، لاصع البياض ، يبدو
وسط الليل كشماع النجر .. ورذاذ المطر ينسكب فوقه في
رفق .. ويرفع ذراعيه الى السماء ، ويتمتم بكلمات لا أفهمها ..
وصوته عتيق قوى ، تستطيع أن تميزه من خلال قرعات الطبل ..
ثم يسكت ويخفض ذراعيه ، فيتمايل أهالى القرية وهم يترنمون
بلحن غريب حزين .. ثم يعود الكاباكا ويرفع ذراعيه الى السماء ،
و يتمتم بكلمات أخرى .. فيصرخ الأهالى صرخات حادة ، وهم
يرفعون أذرعهم ويتمايلون بها .. كأنهم يولولون .. كأنهم
يستنجدون بالسماء ..

ودقات الطبل لا تتوقف ..

دقات ضخمة هائلة .. تملأ الأرض والسماء .. وأحسن بها فوق

رأسى

وقميصى قد ابتل والتصق بلحمى .. وقدمائى تفوصان في
الطين .. ولكنى لا أحس بالبلل ، ولا بالطين .. ورأسى تحت
قبعتى الكبيرة ، ساخن ، كل شعرة فيه تلتهب باللهفة والرهبة .
والهواء بدأ يهب في عنف .. والأشجار من حولنا بدأت
تتمايل في وشوشة صاخبة كأنها مذعورة .. وجلباب الكاباكا
يلير مع الهواء ، فيبدو كأنه وشاح ملاك .. وقبعتى تكاد تطير
من فوق رأسى .

ونجاة ..
صرخت السماء ..
أرعدت ..
ومع الرعد ، الطلق ضوء البرق ..
ظهر نور الله ..
وسكتت قرعات الطبل .. وسكت الأهالي .. ورفع الكاباكا
ذراعيه الى السماء صامتا .. وقد الفرجت شفتاه عن أسنانه
البيض ..
وهطل المطر ..
مطر عنيف .. كأن المحيط اتقل فوق رؤوسنا وبدأ يفرغ
مياهه علينا ..
ونجاة أيضا انتهت فترة الصمت .. وبدأت الطبول تدق
من جديد .. ليست هذه الدقات البطيئة الرهيبية .. ولكن دقات
سريعة مرحة .. وانطلق الأهالي يقفزون في الهواء وهم يصرخون
كأنهم يزغردون ..
والرعد يسود ويدوى ، فيخلع أذنى ..
والبرق يعود ويرق ، فيخلع عيني ..
وقمت من وراء الشجرة التى أختبئ فيها .. وتقدمت الى
الساحة ، أخوض فى الطين وبجانبى سليم ..
ولم يتوقف أهالى القرية عن الرقص عند ما رأونا ، ولم
تسكت الطبول .. ومد الكاباكا يده يصافحني ، ووجهه يبدو
من خلال خيوط المطر ، هادقا مبتسما .. وجه كاهن انتهى من

صلاته ، واستجاب الله لدعائه .. ثم صافح سليم .. وتقدمنا نحو
الكوخ الكبير الذى يتوسط صف البيوت التى تحيط
بالساحة .

وأحسست بمجرد أن دخلت الكوخ كأنى وصلت إلى
الشاطئ بعد أن سبحت طويلا فى مياه المحيط .. المحيط الذى
ينسكب فوق رؤوسنا

وتركنا الزعيم بمجرد دخولنا ، قائلا وإتسمته تبرى فوق
أسنانه البيض :

— عن اذلكم ..

وخرج من الباب الجانبى ..

وخلعت قبعتى ، وجلست على المصطبة المفروشة بحصير من
ألياف الشجر المجذول ، وبدأت أخلع حذائى وجوربى اللذين
بإلهما المطر .. وجلس سليم بجانبى يخلع هو أيضا حذاءه
وجوربه .. ورعشة خفيفة تسرى فى عروقى ، حتى خلت أنى
على وشك أن أمرض ..

وعاد الزعيم بعد قليل ، وهو يرتدى جلبابا جديدا مخططا
بالوان زاهية ، ويحمل بين يديه جلبابين أبيضين ، أعطى لكل
منا جلبابا ، وهو يقول مبتسما :

— أظن أنكما فى حاجة الى تغيير ثيابكما .

وكننا فى حاجة فعلا الى تغيير ثيابنا .. وخلعت قميصى المبلول
بسرعة ، وارتديت الجلباب القصفاض .. ثم خلعت بنطلونى من
تحت الجلباب بعد أن أفرغت جيوبه .. وفعل سليم نفس الشيء

وهو ينظر الى الكاباكا في دهشة وحذر ، كأنه لا يصدق أن يلتقى
منه هذه المعاملة الطيبة ..

وحمل الكاباكا ثيابنا المبتلة الى داخل البيت ، قائلا :
— منجقها بجانب النار ..

ثم عاد بسرعة ، وجلس على المقعد الكبير وأشار لنا بأن
نجلس على المقعدين الآخرين المصنوعين من الجريد .. وتهدى في
راحة كأنه يفصل بين مهمة شاقة انتهى منها ، ومهمة أخرى يبدأ
فيها .. ثم حنى رأسه وركزها فوق قبضة يده برهة طويلة ،
وعند ما عاد ورفعها ، كان وجهه جادا ، متجهما ، ليس فيه أثر
لإبتسامة ..

وقال في صوت خفيض :

— اتنا في انتظار ابنتى بيندا .. ستأتى حالا ..
وجلسنا صامتين .. وعاد الكاباكا ومال برأسه فوق قبضة
يده ..

وبعد قليل دخلت بيندا حافية القدمين ، ملتفة في قطعة من
القماش حمراء اللون ترتفع حتى تغطي لهدبها ، وتترك كتفها
عاريتين .. وشعرها الأسود الناعم مسدل على ظهرها كأنها تجر
وراءها قطعة من الليل ..

وهزت بيندا رأسها الصغير تحيينا دون أن تصافحنا ،
وهمست باللغة الفرنسية التى تبدو وكأن السانأ آخر يتكلم
من حلقها .. افسان أبيض :
— مساء الخير ..

ثم جلست فوق الوسادة الموضوعة فوق الصندوق الخشبي
الكبير .. والمصباح الصغير يلقى ضوءه الباهت على ثوبها
الأحمر ، فتبدو كأنها لوحة فنية رسمها فنان ..
ورفع الكاباكا رأسه ، وقال في صوت خفيض عميق ،
وخطوط كثيرة تشق جبينه :

— لقد أحلتني السماء من عهد احتفظت به ثلاثين عاما ..
الآن أستطيع أن أقول كل شيء .. بامر السماء ..

وسكت وهو يتنهد ، ونظرة حزينة تملأ عينيه ..
وقلت وأنا أمد رقبتى لسوءه لالتقط كل لفظ من ألفاظه :
— هل تريد أن يبقى سليم معنا ؟

وكنيت أعتقد إلى في حاجة إلى توجيه هذا السؤال ، حتى
أعفيه من الحرج إذا كان عرجا في التخلص من سليم ، وحتى
أكتسب مزيدا من ثقته ، إذا كان في قلبه بقية من شك في إلى
أعمل في خدمة سليم لا في خدمة الطب ..

وأجب الكاباكا في هدوء :

— لا .. ليق سليم . آن الألوان ليسمع سليم القصة ..
كل ما أرجوه ألا يكتفى بسماعها ، بل يحاول أن يفهمها ..
ثم سكت ..

وسليم ينظر إليه بعينين جاحظتين ، فيهما نوع من التحدي
والاستغلاء ..

وطالت فترة سكوت الكاباكا وكلنا ننظر إليه .. بعيوننا ..
برؤوسنا .. بقلوبنا .. بلهفتنا ..

وأخيرا مال الكاباكا بظهره على مسند مقعده ، وغره ذراعيه فوق ساقيه ، وبدأ يتكلم دون أن ينظر الى أحد منا .. يتكلم في بدء ، كأنه يشد الكلمات من بعيد .. وقال وعيناه مركزان في سقف الكوخ :

— كان في قريتنا فتاة جميلة .. أجمل بنات القبيلة .. بل أجمل بنات مالي .. وكانت طيبة .. رقيقة .. ذكية .. حلم كل شباب القبيلة .. حلم كل شباب السودان .. وكان الزعيم يدلها كثيرا .. بل كان يشركها معه في رأيه .. ولكن الدلال لم يفسدها .. لم تغتر .. ظلت طيبة .. رقيقة ..
وتنهذ الكاباكا في أسي ، كأنه يطرد دموعا تتجمع في صدره .. واستطرد قائلا :

— وذهبت الفتاة الجميلة ، يوما الى المدينة الكبيرة .. الى ياماكو .. برفقة بعض بنات القبيلة .. ولم تكن تذهب الى المدينة الا نادرا .. مرة ، أو مرتين في العام لتشتري الاقمشة والخلى .. وعادت من المدينة دون ان يبدو عليها شيء .. ربما بدت يومها أكثر مرحا .. وبعد أسبوع ، ذهبت الى المدينة مرة أخرى ، وعادت في المساء .. ثم ذهبت الى المدينة في الأسبوع التالي .. ثم أصبحت تذهب كل أسبوع .. وأحيانا مرتين في الأسبوع .. وبدأ بنات القبيلة وشبابها يتهامون .. وبدأت الاشاعات تحيط بها .. وقد بلغت هذه الاشاعات أذنى الزعيم ، ولكنه سكت عليها .. أو ربما لم يصدقها .. لم يكن أحد يصدق أن الفتاة الجميلة ، الطيبة ، الذكية ، يمكن أن ترتكب خطأ ..

وسكت الكاباكا برهة ومال برأسه على صدره ، ثم عاد ورفعها وعيناه أشد حزنا ، والخطوط العميقة قد ازدادت فوق جبينه ، واستطرد قائلا في صوت أكثر خفوتا :

— وصحا الزعيم يوما من نومه ، وسأل عن الفتاة الجميلة فلم يجدها في القرية .. ذهبت الى المدينة .. وثار الزعيم .. واستدعى بعض أصحابها يسألون عن سرها .. انهن لا يعرفن شيئا .. وهى لا تتحدث اليهن عن سرها .. وكلما عادت من المدينة ظلت معتكفة عنهن الى أن تذهب الى المدينة مرة أخرى .. ولكن واحدة من أصحابها قالت للزعيم انها لاحظت في المرة الأولى التى ذهبت معها الى المدينة ، أنها وقعت طويلا تتحدث الى شاب أبيض .. وكانت عينهاا وهى تعادته ، تلمعان ، وابتسامتها تملأ وجهها .. واشتدت ثورة الزعيم .. وأيقن أن الفتاة الجميلة على علاقة برجل أبيض .. وانتظرها الى أن عادت في المساء .. وسألها عن سرها .. فرفضت أن تعترف .. كانت تعلم أن الزعيم لن يتسامح في خيبتها الكبرى .. كانت تعلم أن القرية رغم أنها أقرب القرى الى المدينة الكبيرة ، الا أنها أشدها محافظة على التقاليد الوطنية .. لذلك خافت أن تعترف بسرها .. ولكن الزعيم قسا عليها .. لأول مرة يقسو عليها .. وجرها الى ساحة القرية ، ووسط كل الشبان والبنات ، ضربها .. ضربها كثيرا .. لأول مرة يضربها ، وظل يضربها حتى صرخت قائلة : نعم .. انه أبيض .. وأحبه ..

وسكت الكاباكا ، وشفتاه لا تزالان ترتعشان ببقايا كلماته.

وأدبرت رأسى الى ييندا .. انها جالسة ملتفة فى الوشاح
الأحمر .. ووجهها غارق فى الدموع .. دموع صامتة ..
وتنهذ الكاباكا واستطرد ، وهو حريص على ألا ينظر لواحد
منا ، كآله يروى القصة لنفسه :

— وحرم الزعيم على الفتاة الجميلة الذهاب الى المدينة ..
وخاصمها كل أهل القرية .. قاطعوها .. كانت كلما مرت بواحد
منهم أدار لها ظهره .. ولكنها لم تأبه بهم .. وتعدتهم ..
واستمدت من كبريائها المجروحة قوة أكبر للعناد .. وبعد أيام
استطاعت أن تترك القرية دون أن يراها أحد .. وذهبت الى
المدينة .. وعادت قبل المساء وهى تجر وراءها الشاب الأبيض
الذى تحبه .. كان شابا طويلا ، قويا واسع العينين .. يبدو من
ملبسه أنه مهاجر فقير .. وكان يسير وراءها وهو خائف ..
يرتعد .. ينظر اليها كآله يتوسل .. كآله على وشك البكاء ..
هذا الرعديد ، الجبان .. ولكنها كانت تشده من يده .. الى أن
دخلت به الى الزعيم وضاحت فى جراحة وتعد .. تريد أن تزوج
.. ورأى الزعيم كالأسد .. وقف على الشاب الأبيض كالنمر ..
وأخذ يدفعه خارج الكوخ .. ثم خارج القرية .. وهو يسبه ..
يلعنه .. ويلعن كل البيض .. والشباب الأبيض يهرول أمامه ..
وهو يتوسل .. ويصرخ .. هذا الجبان الرعديد .. الى أن خرج
من القرية .. وخرج كل شباب القرية يسرون وراءه صامتين ..
فقط ينظرون اليه بعيونهم الغاضبة .. وهو يهرول أمامهم ..
ثم يعود ويتلفت اليهم متوسلا أن يرحموه .. ولكنهم لا يعجبون

.. لا يتكلم أحد منهم .. كلمة تخرج من شفاهنا خسارة فيه ..
ويهرول .. ويجرى .. ونحن دائماً وراءه .. الى أن وصل الى
مدخل المدينة ..

ومسح الزعيم علامات الغضب والغل التي بدت على وجهه
وهو يتحدث عن هذا الشاب الأبيض .. ثم قال :

— وأمر الزعيم بسجن الفتاة الجميلة في أحد الأكواخ ..
عاشت أياماً طويلة لا تخرج من سجنها .. وكان الزعيم يذهب
اليها أحياناً ويحاول أن يقنعها بأن تقاوم حبها .. ولكن .. لا ..
انها عنيدة في الحب .. لا تحاول أبداً أن تبرا منه .. وبدت عليها
تصرفات غريبة .. كانت تهضى أياماً لا تتكلم .. ولا تأكل ..
ولا تشرب .. كأنها قررت أن تموت .. ثم فجأة تصحو يوماً
وتبدأ في الصراخ .. تصرخ طول اليوم .. وتأكل بشراسة ..
كأنها قررت أن تحتفظ بحياتها من أجل حبها .. ويدخل اليها
أحد الشبان يوماً لتحادثه في هدوء ، ويبدو عليها أنها نسيت
حبها .. ونيت عذابها .. ويدخل عليها نفس الشاب في يوم
آخر ، فتب صارخة فيه .. وتهجم عليه .. تمزق وجهه
بأظفارها .. وقلنا عنها انها جنت .. أصبحت الفتاة الجميلة ،
الطيبة ، الذكية .. مجنونة ..

وسكت الكاباكا ليلتلع ريقه .. وارتفع نشيج بيندا الجالسة
في ركن الكوخ ملتفة بالوشاح الأحمر .. والتفتنا اليها جميعاً ،
دون أن يتكلم أحد منا أو يتحرك من مكانه .. ثم عدنا برءوسنا
الى شفتى الكاباكا ..

واستطرد الكاباكا قائلا وهو يمسخ دمعة كبيرة سقطت من

عينيه :

واستطاعت المجنونة أن تفر من سجنها .. ثقيت جدار الكوخ بانظارها .. وذهبت .. وذهبت على ألا تعود .. وعلمنا بعد شهر طويلة أنها تسكن في كوخ على الشاطئ الآخر من النهر .. عند سفح كويالا .. في مكان خفي وسط الغابة .. وعلمنا أيضا أنها تزوجت حبيبها الأبيض ، على الطريقة الاسلامية .. ورغم أن زوجها أصبح غنيا بعد ذلك وجمع كثير من الأموال .. إلا أنها ظلت تسكن في هذا الكوخ .. وهو يسكن المدينة .. ويتردد عليها سرا .. كان يخجل من أن يعرف أحد أن زوجته زنجية ..

وقال سليم كانه يريد أن يتأكد :

— تقول انها تزوجت على الطريقة الاسلامية ؟

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة ، أخسته .. ثم عاد يقول :

— وأصدر الزعيم أمره بشهرؤ القبيلة منها .. لم تعد احدى

بناتنا .. لم يعد من حقها العودة الى القرية .. ولم يعد واحد منا

يستطيع أن يبحث عنها ، أو يذهب اليها .. ولكن الزعيم نفسه

لم يتحمل الأمر الذى أصدره .. أصيب بالشلل .. مات جسده

.. ومات لسانه .. لم يعد يتحرك ، ولا يتكلم .. لم يعد فيه

الا عينان يبكى بهما أحيانا ، ويفضب بهما أحيانا .. وكان من

بين شبان القرية من لا يستطيع أن ينسى الفتاة الجميلة ،

الطيبة ، الذكية .. أجمل البنات ، وأطيبهن ، وأذكاهن .. فكان

يبحث دائما عن أخبارها .. وقد مر عامان .. ثم علمنا أنها ولدت .. وضعت طفلا لونه أبيض ميل الى السرة ..

وبعد ان وضعت الطفل بأسبوع واحد ، جاء زوجها الابيض وأخذ الطفل في غفلة منها .. واختفى هو والطفل .. سافر به الى وطنه الأصلي .. وجنت الفتاة الجميلة .. انتظرت الزوج والابن أياما .. ثم خرجت تبحث عنهما في المدينة الكبيرة .. وهي مجنونة .. كل ما فيها يدل على الجنون .. والناس يضحكون عليها .. ويطردونها من أمامهم .. ويضربونها اذا ألحت في السؤال .. وقبض عليها البوليس مرات ، وكانت تروى لهم قصتها فلا يصدقها أحد .. انها فقط مجنونة .. المسكينة .. وكان زعيم القبيلة قد مات في هذه الفترة ، وتولى غيره الزعامة .. وكان الزعيم الجديد يحب الفتاة الجميلة .. يحبها منذ كانت طفلة .. رجا احبها وهي لا تزال في بطن أمها .. فلم يطلق أن يراها مشردة في شوارع المدينة .. تبيت على الأرصفة .. وتأكل البقايا التي تلقى في الشارع .. فأصدر أمره بالعفو عنها .. وأرسل من عاد بها الى القرية .. وبدأ يعالجها .. ويخفف من جنونها .. وبعد جهد كبير هدأت .. وكان هدوءا غريبا .. رجا كان نوعا آخر من الجنون .. ولكنها لم تنس أبدا ابنها .. ابنها الذي خطف منها .. الرجا برئت من حب الزوج .. الزوج النذل الجبان .. ورغم ذلك فهو لم يكن أسوأ الأزواج البيض .. اللهم كلهم يعتبرون الزواج من بناقنا مجرد متعة .. مجرد لهو .. مجرد تبديد لأوقات الفراغ .. لا أحد منهم يحترم هذا الزواج ..

لا أحد منهم يعترف بهذا الزواج بينه وبين نفسه .. انها مجرد
متعة عابرة .. ثم يختفى .. حتى لو لم يسافر الى وطنه .. يكفى
أن يخرج ولا يعود .. انهم يعتبرون بناتنا حيوانات .. وهم
لا يحترمون زواجهم من الحيوانات ..
وزفر الكاباكا أقامسا من السخط .. وأسقطت بيندا رأسها
بين يديها تخفى دموعها .. وابتم سليم ابتسامة صغيرة
ساخرة ..

وعاد الكاباكا يقول :

— وبعد عام .. جاءت الفتاة الجميلة .. واسمحووا لى أن
أستمر فى تسميتها بالفتاة الجميلة ، فالى لا أتصورها الا منذ
كانت فتاة جميلة .. جاءت الى الزعيم الجديد وقالت له ان ابنها
قد عاد الى باماكو ..

وسألها الزعيم فى دهشة :

— كيف عرفت ؟

قالت ونظرتها ثابتة :

— لا أدري .. ولكنى متأكدة أنه عاد الى باماكو .. قلبى

يقول لى انه عاد .. وأنا أصدق قلبى ..

وذهب الزعيم بنفسه الى المدينة ليتأكد مما يقوله قلب
الفتاة الجميلة .. وكان قلبها صادقا .. لقد عاد النذل الأبيض الى
باماكو ، ومعه زوجة من بنى وطنه .. زوجة بيضاء .. ومعهما
طفل .. وقال النذل لأهل باماكو ان الطفل طفله من زوجته
البيضاء .. وأقص من عمره عدة شهور حتى لا يسأله أحد ،

كيف يكون ابنك من زوجتك ، وهو يبدو كآله اكتمل عام من عمره ، وأنت لم يمر على زواجك أكثر من عام ؟ وكان لون الطفل يميل الى الاسمرار .

جمع الزعيم كل هذه المعلومات ، ثم عاد الى قريته وأبلغ الفتاة الجميلة بكل ما عرفه .. لم يخف عنها شيئا .. ثم سألها :
— ألا زلت تريدین زوجك ..

قالت وعيناها تلمعان كالبرق الغاضب :

— لا .. لا أريده .. أمقتة .. أحقره ..

وقال الزعيم :

— وتريدین الطفل ؟

قالت وقلب الأم في عينيها :

— نعم انه طفلى ..

قال :

— أتريدينه أن ينشأ في قريتنا .. وأبوه أبيض ..

قالت :

— نعم .. انه ابنى ..

قال :

— أليس من الخیر أن يبقى مع أبيه ، ليجد حياة أفضل ،

ليتعلم .. ليصبح طبيبا .. ان المستقبل هناك أبيض ..

وسكتت الأم طويلا ثم قالت والدموع في عينيها :

— ليق مع أبيه . ولكن يجب أن أراه .. الى أمه ..

وقال الزعيم :

— أتريد أن يعرف الناس أنك أمه .. ويعرف الناس أنه
ماتيس ، من أم زنجية وأب أبيض .. ألا ترين كيف يعيش
الماتيس .. بلا أصل .. بل شعب .. بلا شخصية .. ألا تذكرين
كيف كنت أنت تفسك تحقرين الماتيس ..

وسكنت الأم الجميلة .. اكتفت بدموعها .. ثم حملت الدموع
وانزوت بها في كوخها .. ولم تعد تطالب بابنها .. ضحت بكل
حقها فيه من أجله .. ضحت بأمومتها .. بقلبها .. وقبلت أن
تقسم بالاله الأعظم ألا تبوح بسر ابنها .. ولكنها ظلت تصر
على أن تراه .. فكانت تذهب الى المدينة .. وتطوف بيت
النذل الأبيض ، الى أن ترى ابنها من بعيد .. وعند ما كبر
الابن وأصبح صبيا كانت تذهب الى حيث يلعب مع زملائه ،
وتحمل له الهدايا ، وتجلس معه وتحدثه .. وتعود فرحة ..
وكان أكثر ما يفرحها أن ترى ابنها يلعب مع الأطفال الزوج ..
انها تحس أنها لا تزال تعيش فيه .. تحس أن دماءها تجري في
عروقه .. تحس أنه سيبحث عنها يوما ما .. الى أن اكتشف
النذل الأبيض أنها تذهب وتجلس مع ابنها ، فأرسل اليها أحد
موظفيه يهددها .. ولم تعد تذهب الى ابنها ، لا خوفا من
التهديد ، ولكن خوفا عليه ..

وسكت الكاباكا ..

وأجهشت بيندا بالبكاء .. ورأسها منكس فوق صدرها ..
وشعرها مسدل فوق وجهها

ونظرت الى سليم كأنى أذكره بهذه المرأة التى قال لى انها
كانت تذهب الى سامى فى صفه ، وتروى له أساطير الزوج ..
وكان سليم شارد النظرات .. متهدج الأنفاس .. يضغط احدى
يديه بالأخرى .. وينظر الى الكاباكا كانه يقاوم القجارا فى
صدره ..

واعتدل الكاباكا فى جلسته .. ورفع رأسه ينظر الى السقف
كانه يستلهم السماء .. ثم عاد وألقى برأسه فوق صدره ، وقال
فى صوت محشرج :

— هذه الفتاة الجميلة ، هى أختى .. وهى أم سامى ..
وصرخت بيندا ، صرخة كبيرة .. ثم اقتفضت ، وجرت نحو
أيها ، وألقت نفسها فوق صدره ، وارتفع نثيجها ..
ولف الكاباكا ذراعه حولها ، وبكى معها ..

وصاح سليم :

— هذا كذب ..

ونظر اليه الكاباكا نظرة قوية بخرت دموعه ، وصرخ فيه ؟
— اخرس ..

وانكمش سليم فى مقعده ، وتمتم فى جبن :

— أقصد أنه كلام يحتاج الى اثبات ..

وقال الكاباكا وبياض عينيه ينطلق كضوء البرق :

— الاثبات الوحيد ، هو انى أنا الذى أقول هذا الكلام ..

وظل مركزا عينيه على وجه سليم ، حتى أرخى سليم عينيه ،

ثم أدار رأسه الى ابنته ، واحتضنها في حنان ، وأخذ يربت على
ظهرها بكفه ، قائلاً في صوت تخنقه الدموع :
— أبت تعلمين الآن لماذا كنت أعارض في زواجك من
سامى .. ثم لماذا وافقت .. لعلك تصفحين عني ..
وبقيت ساكنة الى أن هدأت الأنفاس من حولي قليلاً ، ثم
قلت في لهجة الطبيب الهادئة ..
— وماذا جرى للفتاة الجميلة بعد ذلك ؟
وأزاح الكاباكا ابنته من فوق صدره ، وقال وهو يقوم
واقفاً :

— أتريد أن تراها ..

قلت في دهشة :

— ألا تزال على قيد الحياة ..

قال :

— نعم .. تعال .. ستراها الآن !

ثم نظر الى سليم من فوق قامته الطويلة ، وقال في تحد :
— تعال أنت أيضاً يا سليم .. تعال لترى زوجة أبيك !

.. وحمل الكاباكا المصباح الصغير ، وتقدمنا خارجا من الكوخ الى ساحة القرية .. وابتدأ تسير بجانبه ودموعها فوق خديها .. ووقف سليم مترددا وعيناه جاحظتان زائغتان .. وجذبتة من ذراعه جذبة خفيفة ، فمشى بجانبى صامتا ، وقد سقط رأسه من فوق عنقه وتدلى فوق صدره ..

ومرنا في ساحة القرية بضع خطوات .. وكان المطر قد انقطع .. والطبول سكنت ، ولم يبق الا بضعة أفراد من الأهالى يتحركون في الظلام كأنهم الأشباح ، وعيونهم البيضاء تبرىق أمام وجوهنا كأنها نقوب في الليل ..

ووقف الكاباكا أمام كوخ يبعد قليلا عن كوخه ، والنفت الينا صامتا .. ركز عينيه فوق وجه سليم ، ثم قلهما الى وجهى .. ثم استدار لنا ، وأخنى رأسه ودخل الكوخ .. ودخلنا وراءه ..

كان الكوخ خاويا الا من سرير من فروع الشجر ، مكوم عليه شيء لا أستطيع أن أتبينه ، رغم ضوء المصباح الذى يحمله

الكتاباكا .. وبجانب السرير صندوق خشبي صغير ، مزين
بالمسامير الملونة ..

ورفع الكتاباكا المصباح فوق السرير ، وقال كأنه يبكي :
— هذه هي الفتاة الجميلة .. أجمل بنات السودان !
وصرخت بيندا :

— عمتى ..

ثم سقطت راحة بجانب السرير ، ووضعت رأسها فوق
صدر المرأة وأخذت تبكي ، وتتكلم بلغتها — لغة الولا —
كلمات سريعة ، وبصوت حاد رفيع ، له نفس الرنة التي نسمعها
في صوت الندابات عندنا ..
وتقدمت الى السرير ..

كان فوقه كومة من العظام السوداء .. ووجه مكرمش ،
ليس فيه قطعة نجت من التجاعيد .. خطوط كثيرة عميقة
متقاطعة ، تكون وجه امرأة عجوز ..
واقترب سليم من السرير في تردد ..

وألقى نظرة سريعة ، ثم تراجع وهو يشهق .. ولكنى
أمسكت به وهمست في أذنه :
— انظر اليها جيدا ..

وفتحت المرأة عينيها .. فبانت ملامحها أكثر .. ان في عينيها
طيبة وهدوءا .. وابتسمت .. ابتسامتها ، لا تزال حلوة قمرح
فوق أسنانها البيضاء بين شفتين شققهما العمر والعذاب ..
ومدت يدا مرتعشة من العظام السوداء وأخذت تمسح على شعر



يندا .. وشفتاها تتحركان دون أن يخرج من بينهما صوت ..
واستطعت أن الملح الشبه الكبير بينهما. وبين ييندا ..
وقال الكاباكا في صوت مرتعش :
— اله ضيف من مصر ، جاء يسلم عليك ..
ورفعت المرأة عينيها الى ، وعادت شفتاها المشققتان
تتحركان فوق ابتسامتها ، دون أن يصدر من بينهما صوت ..
وقلت لها وألا أحاول أن أبتسم :

— هذه مناسبة سعيدة .. لقد حدثني الكاباكا عنك كثيرا .
وهزت المرأة رأسها ، هزات متعبة ، ولكنها رشيقة كأنها
لا تزال تحتفظ بأنوثتها ورقتها .. ثم أدارت عينيها حتى سقطتا
على وجه سليم .. ونظرت إليه طويلا .. ثم شعقت شهقة حادة ..
وملعت ذراعيها في الهواء كأنها تريد أن تصل إليه .. ولسانها
المشلول يتحرك في فمها ويصدر عنه صوت كالخوار الرقيق ..
ثم أسقطت ذراعيها .. وأخفت وجهها بكفيها ، وهي تهز رأسها
فوق وسادتها هزات عنيفة ، وتغوى كالتعط ..
وهمست في أذن الكاباكا :
— هذا يكفي ..

ونظر الكاباكا الى أخته نظرة حزينة مشفقة ، ثم استدار
خارجا من الكوخ .. وخرجنا معه .. وتركنا بيندا تبكي بجانب
كومة المعظم السوداء .. وسليم بجانبى يهمس في صوت
مخنوق :

— مستحيل .. مستحيل ..
وظل يردد كلمة « مستحيل » ، وصوته يرتفع شيئا فشيئا ،
حتى عدنا الى كوخ الكاباكا .. فصرخ :
— مستحيل !

ونظر اليه الكاباكا نظرة هائلة جامدة ، وقال له في هدوء :
— ما هو هذا المستحيل ؟
وقال سليم وهو يرتش ..
— انها ليست زوجة أبى .. لا أستطيع أن أصدق ..

وقال الكتاباكا في هدوء :

— صدق .. والنذل الأبيض الذى حدثك عنه ، هو

أبوك !

وقلت للكتاباكا حتى أقطع هذا النقاش الحاد :

— أعلن أن ثيابنا قد جفت ..

ونظر الكتاباكا الى سليم في ازدهاء ، ثم قال لى :

— سارى ..

ثم خرج من الباب الجانبي في خطوات عصبية ..

والتقى سليم نفسه على مقعد ، وألقى رأسه بين يديه ، وهو

يهمس كانه يبكى :

— لا بد أنى أحلم ..

وقلت له بصوت جاد حتى أشعره بأن هذا ليس وقت

النواح :

— هل هى نفس المرأة ؟

ورفع رأسه الى وقال فى حدة :

— أى امرأة ؟

قلت :

— المرأة التى كانت تذهب الى أخيك سامى فى صفرة

وتروى له أساطير الزوج ..

قال وهو يدير رأسه عنى :

— لا أدرى ..

قلت وكأنى أوّبه :

— أرجوك أن تساعدنى .. تماسك ، حتى نستطيع أن
نصل الى نتيجة ..

قال دون أن يرفع رأسه الى :
— أظن أنها هى ..

قلت :

— ألسنت متأكدا .. ؟

قال وهو يزفر أنفاسه :

— متأكد .. انها هى ..

ثم اطلق صارخا :

— ولكن هذا لا يعنى أنها زوجة أبى ..
ولم أرد عليه ..

جلست على مقعد وأخذت أراجع فى ذهنى حالة سامى
النفسية .. ان حالته الآن واضحة بكل تفاصيلها ..

انه من أم زنجية وأب أبيض .. وقد سقطت هذه الحقيقة فى
عقله الباطن ، نتيجة تجاهلها .. ثم بدأ الصراع بين عقله الباطن
وعقله الواعى .. كل منهما يريد أن يسيطر عليه .. فاذا انتصر
العقل الباطن أصبحت لسامى شخصية زنجية .. واذا انتصر
العقل الواعى أصبحت له شخصية الرجل الأبيض .. والعقل
الباطن يعلم أن أمه هى هذه المرأة التى كانت تذهب اليه فى
صغره وتروى له أساطير الزنوج .. ولو استمرت هذه المرأة فى
الذهاب اليه. فرجأ استطاع العقل الباطن بمرور الأيام أن يلتقى مع
العقل الواعى حول حقيقة واحدة .. ولكن المرأة انقطعت عن

الذهاب اليه .. متعها أبوه .. فنسيها سامى .. وسقطت هي
الأخرى في العقل الباطن مع أصله الزنجى .. الى أن قابل بيندا ..
وكانت بيندا تشبه المرأة الأخرى .. تشبه أمه .. فأثارت رؤيتها
عقله الباطن .. وحركته .. ونصرتة على عقله الواعى .. فأصبحت
تسيطر عليه شخصية الزنجى .. الى أن يبدأ العقل الباطن ،
فيعود ويسيطر عليه عقله الواعى .. عقله الأبيض !
هذه هي حالة سامى باختصار ..

كيف أصل الى علاجها ؟

ان المتبع في هذه الحالات أن أعقد جلسات مع المريض أتركه
فيها يتحدث عن نفسه ويعاود الفوص في عقله الباطن الى أن
يكشف سره بنفسه .. يكتشف عقده ..
ولكن هذه الطريقة — كما قلت — تتطلب شهورا طويلة ،
وأنا سأغادر باماكو بعد أيام ..
ليس أمامي الا الطريقة الأخرى في العلاج .. طريقة ..
الصدمة العصبية !

فكيف أصدمه .. صدمة عنيفة تقفز بعقله الباطن الى
مستوى عقله الواعى ..
وغرقت في أفكارى ..

ودخل الكاباكا يحمل ثيابنا وهو يقول :

— آسف .. ليس في الكوخ أحد الآن ليقوم بكيها ..
كلهم نيام .. وبيندا لم تعد من عند عمته ..
وردت عليه بإبتسامة صغيرة ..

وأخذنا أنا وسليم نبذل ثيابنا .. كل منا يخلع الجلباب الذي
أعطاه لنا الزعيم ، ويرتدي قميصه وينطلونه .. وكلنا صامتون..
ثم اقتربت من الكاباكا وقلت له بصوت خفيض :
— ألم ير سامي هذه السيدة من قبل .. أقصد السيدة
أختك ..

قال وهو يهز رأسه :
— لا .. انه لا يعرف بوجودها .. ولا أعلن أن أحدا
حدثه عنها ..

مدحت يدي اليه مصافحا وقلت :
— آسف لأزعاجك ..
قال وهو يشد على يدي وينظر في عيني :
— أرجو أن تنجح في علاج سامي .. انه ولد طيب ..
قلت كأنني أطمئنه :
— سأبذل جهدي ..
وعاد يقول قبل أن يترك يدي :
— هل هناك أمل ..
قلت :

— أمل كبير ..
وترك يدي .. ونظر الى سليم دون أن يعد اليه يده .. وتردد
سليم ثم قرر ألا يعد يده هو الآخر .. واكتفى بأن تتمم :
— مساء الخير ..
ولم يرد عليه الكاباكا .. ظل متمصبا بقامته الطويلة وسط

الكوخ ، وجلبابه الفضفاض الملون بخطوط صفراء وسوداء ،
يسدل فوق جسده الأسود .. فيبدو وكأن القمر يشق الليل
باشعته الصفراء ..

وخرجنا من الكوخ ..

والكباباكا وراءنا ..

وفجأة طرأ على رأسي خاطر ، فالتفت الى الكباباكا وقلت له :

— هل أستطيع أن أرى بيندا ..

ونظر الى في دهشة .. وقال متعجبا :

— بيندا ..

قلت :

— نعم .. سأراها للقيقة واحدة .. انه أمر هام ..

وسكت الكباباكا يرهة .. ثم خطا الى كوخ أخته .. وغاب

قليلا .. وسليم واقف بعيدا عن يدق الأرض في ملل وضيق ..

وعاد الكباباكا ومعه بيندا ، وعيناه حمراوان في لون

وشاحها .. حرقتهما الدموع ..

وقلت لها في لهفة :

— سؤال آخر .. لو سمحت .. عندما كنت تذهين الى

المدينة للبحث عن سامي .. هل كنت تعثرين عليه في النهار ، أو

في الليل ..

وتنهدت وقالت في زهو كأنها ضاقت بكثرة أسئلتي :

— انه في النهار يكون في الدكان .. وكنت أخاف أن

أذهب اليه في الدكان .. وكنت أجده دائما في المساء ..

لقوب في الثوب الأسود .

قلت :

— اسمعى .. غدا فى الساعة الثامنة تماما يجب أن تكونى على باب غرفتى فى الفندق .. ستجدين الباب مغلقا .. فانتظرى خلفه الى أن تدق الساعة الثامنة بالضبط .. ثم اقرى قهرة خفيفة على الباب .. وعندما أفتح لك .. ستجدين سامى معى فى الغرفة .. فلا تندهشى .. تقدمى كأن الأمر عادى .. هل فهمت ؟

قالت :

— لم أفهم ماذا تقصد ..

قلت :

— انى أحاول بهذه الطريقة أن أفيق سامى من حالته ..
قالت فى دهشة :

— وهل يفيق بهذه السهولة ؟

قلت :

— لا أدرى .. انها مجرد محاولة ..
ومددت يدى لها مصافحا وأنا أقول :
— سأنتظرك غدا ..

قالت :

— مهلا .. انى لا أستطيع أن أذهب اليك فى الفندق ..
قلت فى دهشة :

— لماذا ؟

قالت :

— غير مسموح للزواج أن يدخلوا هذا الفندق ..

قلت :

— سأعطى البواب أمرا بالسماح لك بالدخول ..

قالت :

— انه قانون ..

قلت :

— هناك وسائل كثيرة للتغلب على القانون ..

وتركتها وخطوت سريعا خارج القرية ، وسليم يلحق بى ..
وركبنا السيارة ، وأنا أفكر فى الصدمة التى أعدها لسامى ..
كانت هذه الصدمة تعتمد على ضبط سامى وهو فى حالة
انتقاله من شخصية الى أخرى .. أى فى نفس اللحظة التى يتم
فيها تحوله من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل
الزنجى .. ففى هذه اللحظة يكون الصراع بين العقل الباطن
والعقل الواعى على أشده .. وتكون قوة كل منهما مساوية
للآخر .. وأى محاولة لمساعدة أحدهما قد تنصره على الآخر ..
ومهمتى هى أن أستغل هذه اللحظة لأساعد العقل الواعى حتى
يكشف سر العقل الباطن ، فيحل عقده ..

هذه هى الصدمة التى أعدتها لسامى .. وهو نوع من
الصددمات لايزيد نسبة نجاحه عن عشرة فى المائة .. وأهم عيوبه
أن مجرد وجود الطبيب مع المريض ، قد يحول دون تشوب
الصراع بين العقل الواعى والعقل الباطن .. فالعقل الباطن هو
دائما عقل جبان يسكت ، ويختبئ ، بمجرد احساسه أنه محاصر ،
وأنه ليس متمكنا من فريسته ..

ولكن ..
الواقع أنى كنت فى حاجة الى صدمتين ، لاصدمة واحدة ..
صدمة لسامى ..
وصدمة لسامية ..
وبدأت أفكر خلال الطريق فى صدمة أخرى أعدها لسامية ،
وقد غابت عن عيني كل مناظر الغابة التى تمر بها ..
وقطع على سليم تفكيرى وقال بصوت ناله كآه يحدث
نفسه :

— هل ستطلع سامى على كل شيء ؟
قلت وأنا أشد عقلى من التفكير فى سامية :
— المشكلة ليست فى اطلاعه .. ولكن فى الطريقة التى
نطلعه بها ..

قال وأصابه متشنجة فوق عجلة القيادة :
— قد يصدم عندما يعرف الحقيقة ، وتسوء حالته ..
قلت :

— انى أريده أن يصدم .. ولن تسوء حالته .
قال ولهفته اللبائية تملأ فيه :
— أظن لا أريده أن يعرف شيئا ..
قلت فى هدوء :

— من حقه أن يعرف ..
قال فى حدة :

— ومن حقى أن أحمى سمعة العائلة .. وسمعتى ..
وسمعة سامى نفسه ..
قلت :

— دع سامى يقرر ذلك ..
قال كآله يصرخ :

— سامى مجنون لا يستطيع أن يقرر شيئا .. ثم الى
لا أريدك أن تتدخل فى حياتنا الى هذا الحد .. ومن حقى أن
أعفيك كطبيب من علاج أخى ..
قلت بنفس الهدوء :

— ليس هذا من حقك .. ان سامى ليس مجنونا حتى تعتبر
نفسك قيما عليه .. ان المريض النفسالى عندما يكون فى حالته
الطبيعية يعتبر انسانا كامل القوى العقلية .. من حقه أن
يتصرف .. ومن حقه أن يختار طبيبه ..

ولنظرت الى سليم نظرة جامدة واستطردت فى لهجة عتاب :
— اذك الانسان أنانى .. ولم أكن أعرف أنه يمكن أن تضحى
بأخيك فى سبيل ألائيتك ..

وظل سليم ساكنا ، وأقامه متهدجة ، ثم اغرورقت عيناه
بالدموع .. وقال وعجلة القيادة تهتز فى يده :

— انى حائر يا دكتور .. أها مصيبة .. مصيبة ..

وابتسمت فى وجهه ، وقلت وأنا أربت على ظهره :

— اطمئن يا رجل .. وتأكد أن شفاء سامى فيه حل لكل

المشاكل ..

ومسح سليم دموعه وظل صامتا الى أن وصلنا الى الفندق ..
.. وقلت له وأنا أفتح « باب السيارة » ..

— أرجوك أن تبلغ سامى أنى أريد أن أراه غدا الساعة
السابعة فى حجرتى بالفندق .. وأرجوك ألا تهول له شيئا مما
عرفناه .. أرجوك .. لو قلت شيئا لأفسدت كل شيء ..

وهز سليم رأسه موافقا ..
وهمت بالنزول من السيارة ، ولكنى عدت والتفت اليه
قائلا ، وفى رأسى فكرة جديدة :

— هل تحتفظ بالمجلات اللبنانية القديمة التى كانت تنشر
صور سامية ، وتكتب عنها كمطرية ..
ونظر الى فى تعجب ، وقال :
— نعم .. انها فى الدولاب ..
قلت :

— أرجوك أرسلها الى فى الصباح الباكر ..
قال والدعشة تنطلق فى عينه ..
— لماذا ؟

قلت :
— مستغرق فيما بعد .. تصبح على خير .
وتركته .. وصعدت الى غرفتى .. وفطرت فى الساعة .. انها
الثانية صباحا .
وبدأت أخلع ثيابى وأنا أكاد أسقط من التعب .. وخوف

كبير بلا صدرى .. خوف من أن يفسد سليم خطتى ويطلع
سامى على الحقيقة ..
وكان تعبى أكبر من خوفى ..
نمت ..



وقمت من لومى فى الساعة الثامنة صباحا على صوت طرقات
مهذبة على بابى .. وكان خادم الفندق يعمل لى مطروفا كبير ..
وقال لى ان شخصا قد تركه لليواب وطلب توصيله الى فى الحال
.. حتى لو كنت نائما !
وقتحت المظروف ..
وابتسمت فى راحة ..

كان المظروف من سليم .. وكان يضم الجرائد والمجلات
البنائية التى كتبت عن سامية ونشرت صورتها .. وكانت
ابتسامتى لأن ارسال هذا المظروف الى ، كان دليلا على أن
سليم قد قرر بينه وبين نفسه أن يساعد لى فى علاج أخته وأخيه ،
وأله لن يفسد خطتى ..

وبدأت أقلب فى الصحف والمجلات القديمة .. ان تاريخها
يرجع الى عام ١٩٣٦ ، وسامية تبدو فى صورتها ، فى العاشرة من
عمرها .. هزيلة .. صفراء .. ولكن فى عينيها حيوية دافقة ..
وترتدى زيا غاليا ، وتضع فى معصمها سوارا من الماس لا قلبسه
بنت فى عمرها .. انما يدل على نراه أيتها ، وعلى تباهيه بثروته ،

وعلى فساد ذوقه .. ومكتوب فوق الصورة عنوان كبير « مطربة
افريقيا » ، ومكتوب تحتها أن الأنسة الصغيرة سامية الداعوق
كرعة المهاجر والأديب المعروف سامح الداعوق ، قد غنت في
الحفلة التي أقيمت في زحلة لتكريم أبيها ، فادهشت السامعين
بتعريدها العذب .. و .. و .. وكلام كثير في جميع هذه الصحف
والمجلات عن الموهبة المبكرة ، والبرعم المتفتح ، والفن الأصيل
.. ولا غرو ، فهي فنانة بنت فنان .. الى آخر هذا التفاق الذي
تجيده المجلات اللبنانية التي تصدر خصيصا لابتزاز أموال
المهاجرين .

ورأيت صورة الأب ، السيد سامح الداعوق .. انه أقرب
شبهها الى سليم منه الى سامي .. ولكن وجهه أكثر اعتدادا ،
وعينه أكثر حدة .. وله شارب مرفوع .. ويضع على رأسه
طربوشا طويلا ، ويمسك في يده بعضا ، لها يد من ذهب ، وفي
أصبعه خاتم من الماس .. والغرور ينطق من وجهه .. غرور يكاد
يكون جنونا .. وكلام كثير عن عبقرية السيد الوالد .. وعنوان
كبير « أمير شعراء المهجر » .. ثم قصيدة من شعره ..

وقرأت القصيدة ، انه ليس شعرا .. انه قطع من الحجارة
والطوب مرصومة بعضها بجانب بعض ، في شكل كلمات ..
كلمات تنقصها الرقة ، وينقصها المعنى ، وينقصها الوزن .. ولا
أدري لماذا كان يصمم الوالد على أن يكون شاعرا .. ربما لأن
المجتمع الضيق المعزول الذي يعيش فيه المهاجرون الى افريقيا ،
يجعلهم يحاولون أن ينفسوا عن أنفسهم في هواية فنية ..

تخفف من ضغط العزلة والسيان على نفوسهم .. وغالبا ماتكون
هذه الهواية مجرد خيال ، ليس لها واقع فنى .. فيتخيل أحدهم
أنه شاعر ، ويتخيل الآخر أنه مطرب ، ويتخيل ثالث أنه ممثل ،
ويتخيل رابع أنه أحسن من يعزف على البيانو فى العالم ..
وهكذا .. وربما حاول السيد الوالد فى صغره ، أن يكتب الشعر
تنفيسا عن ضيقه ، ثم لما أصبح غنيا ، مليونيرا ، حاول أن يفرض
شعره على الناس بنقوده .. حاول أن يشتري المعجبين به بالمال ،
كما تعود أن يشتري كل شيء .. فأعقد على أصحاب المجلات
اللبناية .. وهو مقتنع بينه وبين نفسه أنه شاعر أصيل .

وانتهيت من قراءة المجلات ، ووضعتها على المسائدة ،
وتعمدت أن أضع العبد الذى يحمل صورة سامية على رأسها ..
وارتديت ثيابى ، وتناولت افطاري فى الغرفة ، ثم أبلغت
البواب ، أن يدع أى فتاة تسأل عنى ، تصعد الى غرفتى فوراً ..
كنت منتظرا سامية ..

لم يكن بينى وبينها موعد ، ولكنى كنت واثقا أنها ستأتى
لزيارتى .. لقد جاءت أمس للاتفاق معى على موعد سفرنا الى
لبنان ، ولم تجدنى .. وربما خيل اليها أنى سافرت وحدى ،
وانى تغليت عنها .. ولكنها ستأتى اليوم أيضا .. وأيضاً لتتفق
معى على السفر الى لبنان .

والواقع النفسى لسامية يدل على أن الدافع الحقيقى الذى
يدفعها الى زيارتى ليس هو السفر الى لبنان .. ولكنها تحس فى
أعماقها أنها فى حاجة الى .. فى حاجة الى مساعدتى .. ولكنها

لا تستطيع أن تعرف سر هذه الحاجة .. لا تستطيع أن تبررها ،
لأنها لا تعرف أنها مريضة .. وأنها في حاجة الى كطبيب .. قتلجا
الى تبرير حاجتها الى ، بما عليه عليها عقلها الباطن .. وهو حاجتها
الى السفر الى لبنان !

والواقع النفسى لسامية يدل أيضا ، على أنها ليست في
حاجة الى السفر الى لبنان .. ولكن لبنان يمثل لها الفترة التى
قضتها تعيش فى حلمها الكبير ، بأن تكون مطربة ذائعة الصيت ..
هذا الحلم الذى غذاه أبوها حتى صوره لها كحقيقة تعيش فيها
.. ولكنها لا تستطيع أن تواجه هذا الحلم الآن ، بعد أن ضغط
أخوها سليم فى عقلها الباطن بقسوته ، وبضربها .. كل ما تستطيع
أن تواجهه هو رغبتها فى زيارة لبنان .

هذا هو الواقع النفسى لسامية ..

وطال انتظارى لها ، حتى كدت أياس ..

وفى الساعة العاشرة والنصف ، سمعت طرقا على بابى ..
طرقات مترددة هزيلة ..

وفتحت ..

سامية على الباب ..

أكثر هزالا واصفرارا ..

واستقبلتها مبتسما ، متعمدا أن أبدو فرحا ب لقاءها ، وقلت
كمادتى ، وأقا أجمع كل أعصابى وكل ذهنى :-
— أهلا سامية ..

ودخلت مترددة ، وهى تتلفت فى أرجاء الغرفة ، كأنها
تخاف أن يضبطها أحد ، ثم قالت هامة :
— صباح الخير ..

وقلت بلا مقدمات وأنا أرفع صوتى لأبدو أكثر فرحا :
— ان صورتك منشورة فى الصحف ..
لم اقل صحف اليوم ، ولا صحف خمسة عشر عاما مضت .
وبهتت سامية ..
وقفت كأنها تسمرت فى الأرض .. وعيناها مفتوحتان ..
وفكها الأسفل ساقط من وجهها .

ولم تتكلم .. فقط تنظر الى يهاتين العينين المفتوحتين ..
وصحت مرة ثانية محتفظا بלהجتى المرحه :
— لماذا أخفيت عنى أنك مطربة .. انك تعنين ..
وقالت فى صوت متحشرج ، كأن صوتها يخرج من حلقها
دون أن ير يشفتيها ..

— مطربة .. أغنى .. مطربة .. مطربة ..
وقلت وأنا ألتقط الجريدة القديعة من فوق المائدة ، دون أن
أبدى اهتمامى بالحالة التى تعانىها ..
— انظرى .. انك جميلة فى الصورة ..

لم أقل انها « كانت » جميلة .. لم أحاول أن أشعرها أنى
أتحدث عن شىء مضى ..

ونظرت سامية الى صورتها .. نظرت طويلا .. ووجهها
يزداد اصفرارا .. وأناقسها تهادج .. ثم بعد قليل .. وهى

لا تزال مسكة بالجريدة تنظر فيها الى صورتها .. ابتسمت ..
واتسعت ابتسامتها .. ثم شددت قامتها .. ورفعت رأسها ..
واستقرت نظراتها .. وضمت شفتيها .. ثم خفضت ذراعها الذي
يحمل الجريدة .. ونظرت الى نظرة متعالية ، كأنها تنظر الى من
فوق المسرح .. وقالت في صوت حالم :

— لقد صفق لى الناس طويلا .. وقذفتنى إحدى السيدات
بوردة .. وكان الرجال يطلقون الرصاص فى الهواء ، ويصيحون
.. لعيون سامية .. وجاء الخواجه سركيس صاحب مطعم زحلة ،
وتوسل الى أبى أن يسمح لى بالعشاء كل ليلة .. وقال انه
سيتعاقد معى .. و ..

واستمرت سامية تروى كل التفاصيل كبيرة وصغيرة عن
نجاحها فى حفلة زحلة .. وقد سبق لها أن حدثتني عن هذه
الحفلة بالذات عند ما كانت تتحدث عن أبيها ، ولكنها لم تذكر
شيئا عن نفسها .. لم تذكر لى أنها غنت .. وأن الناس صفقوا
لها .. وأن الجرائد نشرت صورتها .
وابتسمت وأقا أحمد الله ..

لقد نجحت خطتى ، التى بنيتها على مفاجأة سامية بصورتها
المنشورة فى الصحف .. نجحت فى اعادتها الى عملها الكبير ..
الى الحقيقة الوهمية التى كانت تعيش فيها .. ولكنه نجاح
جزئى .. نجاح فى حل جزء من العقدة المركبة التى تعانىها
سامية .. فقد كان يجب أولا .. اعادتها الى حلمها الكبير ..
ثم بعد ذلك افادتها من هذا الحلم ..

وسامية لا تزال تتحدث عن تفاصيل حفلة زحلة .. ثم فجأة
سكنت قبل أن تتم كلامها . وجحطت عيناها .. وانطلقت منهما
نظرات خائفة .. وسقط فكها الأسفل مرة ثانية .. ثم سقطت
الجريدة من يدها على الأرض .. و .. صرخت .. صرخات حادة
متتالية ..

وفي الحال أخذت أصفق بيدي ..

وسامية تصرخ ..

وأنا أصفق ، وأحاول أن يعلو صوت تصفيقي على صوت
صراخها ..

ثم بدأت أصيح وأنا مستمر في التصفيق ، وهي مستمرة في
الصراخ :

— غنى يا سامية .. غنى .. أسمعيني صوتك .. لا تسكتي
.. غنى .. أم كلثوم تغنى بمجرد أن أطلب منها أن تغنى ..
وهي لا تزال تصرخ .. وتراجع من أمامي .. وتراجع ..
واصطدمت ساقتها بحافة السرير فسقطت جالسة عليه ..

وقلت أريد أن أصددها بفجأة أخرى :

— غنى يا سامية .. سليم لن يضربك .. لقد تعهد لي ألا
يضربك .. انه معجب بصوتك .

وبسكتت عن الصراخ فجأة ..

ونظرت الى في شك مجنون .. ثم انطلق منها هذا الصوت
المتحشرج الذي لا يمر بشفتيها ورددت :

— سليم لن يضربني .. لن يضربني .. سليم لن يضربني ..

ثم ابتسمت ..
واستقرت ابتسامتها فوق شفيتها .. ثم أغمضت عينيها ..
وسقط كل جسدها على السرير ..
ونامت ..

او اغمى عليها من عنف المعركة النفسية التي اجتازتها في
هذه اللحظات ..

وفد كنت أعرف لماذا بدأت سامية في الصراخ .. لقد
صرخت عند ما اتقل بها عقلها الباطن فجأة من المرحلة التي
كانت تغنى فيها ، الى المرحلة التي بدا فيها سليم يضربها بقسوة
حتى تكف عن الغناء .. اختفت من عينيها صورة الجمهور الذي
يصفق لها ، وارتفعت صورة صفعات سليم .. وقد صفقت لها
في هذه اللحظة حتى أساعدها على الاعتقاد بأن ما تراه أمام
عينيها ليس صفعا ، ولكنه تصفيق .. وكان يساعدننى على نجاح
هذه الفكرة ، أنها في الواقع لا تحس بالام الصفع ، إنما كل
ما تحس به هو صورة ايد تتحرك بالصفعات .. وهى تقريبا
نفس حركات التصفيق .. وكنت بذلك أحاول أن أساعد عقلها
الواعى على أن يغلب عقلها الباطن ، ويتحرر من الخوف ..
وعند ما فاجأتها بقولى « سليم لن يضربك » ، كنت أحاول أن
أكون أنا صوت عقلها الواعى .. ولأنها تجهل أنى أعرف أن
سليم كان يضربها ، فكان من السهل عليها أن تستسلم بعقلها
الواعى الى ..

ونجحت الخطة ..

ولكنها نامت ، أو أغمى عليها ، وكان أكثر ما أخافه أن
تفقد من نومها وهي في نفس الحالة التي كانت عليها .. يهرب
منها حلمها الكبير .. وتفسخه في عقلها الباطن تحت ضغط
صفعات سليم ..

ورفعت جسدها كله فوق السرير ، وغطيتها بالملاءة البيضاء
.. ثم استدعيت خادماً الفندق ، وأمرته أن يستقل سيارة أجرة
ويذهب الى دكان سليم ويستدعيه حالا الى ..
وأعطيت الخادم بقشيشاً كبيراً ..

وجلست أفكر في صدمة ثالثة أفقد بها سامية من حلمها
الكبير .. وأدفع شخصيتها الى النمو الطبيعي ، حتى ترك عمر
العاشرة ، الذي لا تزال تعيش فيه ، وتنتقل الى عمرها الحقيقي
.. عمر الثالثة والعشرين ..

وجاء سامي .. ودخل غرفتي مهرولاً .. وسقطت عيناه على
أخته الراقدة على السرير ، وصرخ في لهفة حقيقية :
— ماذا حدث لها ؟

قلت في هدوء أرطب به لهفته :
— لا شيء .. مجرد انغماء بسيط ..

قال :

— متى أغمى عليها .. ولماذا .. ماذا فعلت بها ..
قلت في هدوء :

— دعك من هذا الآن ..

ثم بدأت أحلل له حالة سامية تحليلاً بسيطاً حتى يستطيع

أن يفهمه .. وأكذبت له أنه لم يبق إلا خطوة واحدة ، ويتم لها
الشفاء ..

ثم قلت له وأنا أنظر في عينيه ..
— أليس في باماكو تخت موسيقى شرقية ؟
قال في دهشة :
— لماذا ؟

قلت :
— حتى تفنى سامية بمصاحبتك .. انا سنقيم حفلا غنائيا !
وانطلق سليم بلهجة اللبناية صارخا :
— يخرب بيتك .. شر بتعمل فيها .. ان صوتها العن من
مواء القطط ..

قلت في هدوء وأنا أبتسم :
— أعرف .. ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي أراها
أمامي ..
قال :

— انك ستفضحنا في كل البلد ..
قلت :
— لا تقل للمدعوين أن سامية ستغنى .. قل لهم انك فقط
تدعوهم الى حفل موسيقى .
قال :

— مستحيل .. مستحيل .. هذه نهاية سمعتنا ..
قلت وأنا أمسك بيده :

— أرجوك يا سليم .. ساعدنى .. لا يمكن أن تكون أقل
اهتماما بشغفه أختك منى ..

ونكس سليم رأسه .. وسكت طويلا .. ثم أخرج منديلا
وأخذ يمسح به العرق المتصبب على وجهه .. ثم قال وهو لا ينظر
إلى :

— ان عندنا بعض المهاجرين يجيدون العزف .. واحسد
يعزفه على الكمان .. وآخر يعزف على العود .. وثالث على
القانون .. والرق .. و ..

وقاطعته :

— هذا يكفي .. متى ستقيم الحفل ؟

قال وكأنه سلم أمره لى والله :

— كما تشاء ..

قلت :

— غدا مساء ..

وهز رأسه موافقا ، واستطردت قائلا :

— هناك شيء آخر .. ان سامية ستقيم الآن وهى تذكر
كل شيء عن أيامها عند ما كانت تبنى .. الأيام التى كان أبوها
يقنعها خلالها بأنها مطربة كبيرة .. وأريدك أن تعاملها على أنها
فعلا مطربة كبيرة .. وكأنها لا تزال فى عمر العاشرة .. واعتذر
لها عن ضربه لها .. اعتذر لها كأنك ضربتها أمس فقط ..
واقنعها أنك محبب بصورتها .. وكل ما هنالك أنك كنت عصيا
عند ما ضربتها ، وأن مر عصبيتك هو سوء حالة العائلة المالية .

ورفع سليم عينيه الى ، ثم عاد وخفضهما وقال هامسا :
— حاضر ..

وقمت من مكاني ، وفتحت حقيبتى الطبية ، وأعددت حقنة
منشطة حقنت بها سامية ، ثم قربت من أنفها قطعة مغموسة في
الأكثير ..

وبعد قليل أفاقت ..

واحتضنها سليم وهي تقوم من الفراش وقال في حنان
كبير :

— تعالى نعود الى البيت يا سامية ..

وسارت مرتكنة عليه .. هزيلة .. صفراء .. وذراعه حول
خصرها .. وقبل أن يخرجها ، قلت لسليم وأنا ابتسم له ابتسامة
مشجعة :

— هل اتفقت مع سامى أن نرعى على فى الساعة السابعة ؟
قال :

— نعم .. مياأتى اليك !

وخرج محتضنا أخته .. وقلبي يتمزق عليه وعليها ..



وتركت غرفتى ، ونزلت الى قاعة الطعام لاتناول غدائى ،
ومررت على بواب الفندق ، وقلت له ، وأنا أضع يدي فى
جيبى :

— هناك فتاة زنجية مستسأل عني هنا في الساعة الثامنة ..
أرجوك دعها تصعد الى غرفتي بمجرد حضورها ..
ورفع بواب الفندق حاجبيه وقال في اصرار :
— مستحيل يا دكتور .. هذا ممنوع .. هذا قانون ..
وأخرجت يدي من جيبى وفيها خمسة آلاف فرقك ، أى
حوالى خمسة جنيهات ، ودمستها في يد البواب :
— أرجوك .. حاول .. انها مسألة هامة .
وتخلصت أصابع البواب فوق النقود ، وقال وهو يتشم
ابتسامة خبيثة :
— سأحاول ..

في حوالى الساعة السابعة دخل سامى الى غرفتى ،
وصافحنى دون أن يرفع عينيه الى .. كان يسدو منهاكا ، باهت
اللون ، كأنه قضى ليلائه أرقا .. وكانت على وجهه علامات
تفكير عميق .. وفي عينيه حيرة أجهدته ..
وفاجأته قائلا ، بمجرد أن أجلس على المقعد الكبير الذى
يتوسط الحجرة :

— لقد عرفت الكثير عن طفولتك ..

ورفع الى رأسه فى هدوء ، ونظر الى وبين شفثيه ابتسامة
ساخرة وقال :

— ماذا عرفت ؟

قلت وأنا أسجل فى ذاكرتى كل خلجة ترسم على وجهه :

— عرفت أنك كنت تلعب مع الأطفال الزوج ..

وارتعشت رموشه فوق عينيه ، ثم جمع أصابعه فى قبضته
محاوِلا أن يضغط على أعصابه حتى يحتفظ بهدوئه .. ثم قال
وهو يميل بظهره على مسند المقعد :

— كنت أضربهم ..



قلت بسرعة :

— وكنت تحمل اليهم الحلوى والشيكولاته ..
ونظر الى في دهشة كأنه يتعجب من أين جمعت هذه
المعلومات .. ولم يرد على ..

واستطردت قائلاً بلمحة عادية وكل عيني فوق وجهه :
— وكانت تأتي اليك سيده زنجية تجلس معك وتروي لك
أساطير الزوج ..

واعتدل في جلسته ، ونظر الى بعينين مفتوحتين وقال
متسائلاً :

— سيده زنجية ؟ ! ..

قلت :

— نعم ..

وعقد ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يتذكر ، ثم قال بلا
مبالاة :

— لا أذكر

قلت في هدوء ..

— حاول أن تذكر ..

قال والمعجب يشتد في عينيه :

— لماذا أحاول أن أتذكر ؟ ..

قلت وأنا أنظر اليه نظرات ثابتة :

— لأنني أريدك أن تذكر ..

وقال في حلة ووجهه يحترق :

— لماذا .. وما سر تفتيشك في حياتي ؛ واصرارك على أن تعرف كل يوم من أيامي .. اني أحس بجو غريب يحيط بي منذ عرفتك .. أحس كأن هناك مؤامرة تدبر ضدي .. قلت في هدوء .

— هناك ناس يحاولون مساعدتك ..

وصرخ وهو يعتدل في جلسته :

— مساعدتي في ماذا .. ومن الذى طلب منهم أن يساعدونى .. لماذا .. لماذا كل هذا الجو الغريب ؟

قلت وأنا أكثر هدوءا :

— لأك مريض ..

والتفض رأسه فوق عنقه ، واصفر وجهه وقال وقد بدت شفاه أكثر جفافا :

— أنا لست مريضا ..

قلت فى اصرار :

— أنت مريض .. وتعلم أنك مريض ..

قال فى حدة وقد بدأت معركة هائلة تشب فى نفسه ، يحاول أن يهرب منها فلا يستطيع :

— مريض بماذا ؟ ..

قلت محتفظا بهدوئى :

— مرض اسمه ازدواج الشخصية ..

قال وهو يدير عينيه عنى ، وظهوره يسقط فوق مسند المقعد :

— ماذا يعنى هذا ؟ ..

قلت فى بساطة :

— أتذكر يوم قال لك أخوك سليم انك كنت فى الغابة ..

لقد كنت أنا معه .. ورأيناك هناك ترقص مع الزوج ..

قال فى صوت كالصراخ :

— أنا لم أكن فى الغابة .. ولم أرقص عمري مع الزوج ..

انى أحترهم .. وأنت واهم كأخى سليم ..

قلت وعيناي لا تزالان فوق وجهه :

— انى أعرف انك لا تدري انك كنت هناك .. لو كنت

تدري ، لما كنت مريضا ..

قال صارخا :

— لا تقل الى مريض ..

ثم سكت .. ومال رأسه فوق مسند المقعد .. وبدأت

أنفاسه تتهدج .. ووجهه يزداد اصفرارا ..

وطالت فترة سكوته ..

وأنا ساكت بجانبه .. وكنت أعلم أنه فى فترة سكوته

يخوض المعركة .. معركة يثيرها عقله الواعى ليكشف سر عقله

الباطن ..

وأخيرا قال كأنه يخاطب نفسه :

— كل ما أحس به أن هناك أشياء تحدث لى ولا

أذكرها .. أحس كأن هذه الأشياء اختفت خلف ضباب ..

وأحاول أن أخترق الضباب فلا أستطيع ..

قلت كآنى لم أسعه :
— هل تذكر المرأة الزنجية التى كانت تجلس معك فى
صغرك وتروى لك أساطير الزوج ؟ ..
وجحظت عيناه أمامه كأنه يدهما ليخترق بهما الضباب ،
ثم قال :

— لا .. لا أذكر .. هذه المرأة ليست فى حياتى ..
قلت :

— انها فى حياتك .. انها أهم شئ فى حياتك ..
قال فى اصرار ..
— لا أذكرها ..

قلت :
— حاول .. انك تستطيع أن تذكرها ..
وقطب حاجبيه ، ومسح العرق من فوق وجهه بكفه يده ،
وقال كأنه يبكى :
— لا أستطيع .. لا أستطيع ..

قلت :
— أتذكر قصة الملك الزنجى سوتدياتا ...
ولوى عنقه الى :
— ما دخل قصة سوتدياتا الآن .. انك تحيرنى .. انك
تعذبنى ..

قلت بسرعة :
— هل تذكر متى سمعت هذه القصة ؟ ..

قال :

— انى أسمعها دائما .. انها قصة معروفة ومكتوبة فى كل الكتب التى كتبها الفرسيون عن تاريخ دولة مالى ..
قلت :

— ولكنك لم تقرأها .. لقد سمعتها .. وكنت صبيا صغيرا ، وكنت تلعب فى الساحة المتربة مع الأطفال الزوج .. وكانت تأتى اليك امرأة زنجية متوسطة العمر .. جميلة .. جميلة جدا .. وتجلس فى طرف الساحة المتربة فى ظل شجرة سنط .. وتناديك اليها .. فتذهب اليها فرحا .. وتجلس بجانبها على الأرض رغم ثيابك النظيفة الأنيقة .. فتعطيك بعض اللعب الصغيرة .. لعب من التى يلعب بها الأطفال الزوج .. ثم كانت تروى لك حكايات .. حكاية الملك سوتدياتا .. ثم تنصرف عنك .. وقد كنت تحب هذه المرأة .. تحبها دون أن تدرك سبب حبك لها .. ثم لم تعد المرأة تأتى .. وانتظرتها طويلا .. كنت تنتظرها كل يوم .. ثم بدأت تنساها .. اختفت فى عقلك الباطن ..

وكان سامى يتنفس خلال كلامى بصعوبة .. وعيناه هائمتان أمامه والعرق يزداد تصببا على وجهه .. وأصابعه متشنجة فوق مسندى المقعد .. ويفوض فى جلسته كأنه يحاول أن يختبئ من شىء .. ثم همس فى صوت كالحوار .. صوت ينطلق من داخله ، كأن شخصا آخر يعيش فى معدته :

— لا أذكر .. لا أذكر ..

قلت فى بساطة الحقيقة :

— انك تذكرها جيدا .. تذكرها لا بذاكرتك .. بل
بأعماقك .. بل انك لا زلت تبحث عنها .. أعماقك تبحث عنها ..
وقد رأيتها .. وتتبعها .. رأيتها منذ مدة قريبة .. لقد كنت معها
منذ ليلتين ..

وقال وصوت الحوار يصطدم بأقواس التهذبة :
— أنا .. أنا .. مستحيل .. لماذا أبحث عنها ..
قلت في هدوء يحمل قوة المفاجأة .. قوة الصدمة :
— لأنها أمك ..

وقفز صارخا صرخة مجنونة :
— أنت مجنون .. أمي ماتت .. ماتت ..
قلت :
— لم تكن أمك التي ماتت ..
قال :

— أنت مجنون .. أنت تكذب ..
قلت وصوتي الهادي يرن في وسط صراخه ، وعيناي
مركزتان في عينيه كأنني أملئ عليه ارادتي بالتتويم المغناطيسي :
— أنت تعلم أنني أقول الحقيقة .. شيء في نفسك يعلم أن
هذه هي الحقيقة .. حاول أن تواجه الحقيقة .. حاول أن تصل
إلى هذا الشيء .. انك الآن تشك في الحقيقة .. انك لست متأكدا
من أنني أكاذب .. ولكنك فقط تشك في الحقيقة .. أريدك أن
تجتاز مرحلة الشك .. يجب أن تجتازها ..

وصرخ بأعلى صوته وعيناه متسعتان على آخرهما ، حتى
أصبح كل وجهه عينا ..

— أنت مجنون .. وتريد أن تجننى ..

ثم رفع مقعدا صغيرا وقذفني به وهو لا يزال يصرخ :

— لا تجننى .. لا تجننى ..

ووجهه يرتعش .. والخلجة التي فوق شفته العليا أشد
ارتعاشا حتى تكاد تنخلع من وجهه .. وعيناه المخيفتان فيهما
لمعان قوى .. لمعان أقرب الى لمعان الجنون ..

وكنت متعودا على هذه الحالات التي ينقلب فيها الجنون
الهادىء الى جنون عنيف .. وتعلمت بالمرآن كيف أتجنب ثورة
مرضاي ، فتجنبت بسرعة المقعد الذي قذفني به .. وعدت أنظر
الى وجهه فى هدوء ..

واقبته سامى على صوت اصطدام المقعد الذى قذف به ..
وتسمر فى وقفته .. يخلق فى المقعد الملقى على الأرض .. ثم
يخلق فى وجهى .. وأنفاسه لا تزال تتهدج ..
وخفت أن يهدأ ..

وألقيت نظرة سريعة على ساعتى ..

انها الثامنة بالضبط ..

وقلت لسامى وأنا أحاول أن أثيرة أكثر :

— اقلك ستراها الآن ..

قال ، ولعابه يخرج كرهاوى الصابون فوق شفتيه ، من
شدة تهدج أنفاسه :

— من ؟ ..

قللت في هدوء :

— أمك ..

وهم أن يصرخ من جديد .. وصوت الخوار ينطلق من تحت
لسانه بلا كلام ..

وفي هذه اللحظة سمعت نقرة خفيفة على باب غرفتي ..
ونظرت الى الباب ، فلمحت ظل قدمين صغيرتين تطلان من
تحت ..

وقلت لسامى في هدوء :

— لو فتحت الباب الآن سترأها ..

ولم يكن سامى قد سمع النقرة على بابى .. فاحتبست
صرخته .. ونظر الى في ذهول يثير الشفقة ، وقال كالتائه وهو
يتلفت حوله :

— أى باب ؟ ..

قلت :

— باب الفرقة ..

وظل في مكانه ينظر الى في ذهول ..

وعدت أقول له في لهجة فيها رلة السيطرة .. سيطرتى على

شخصيته :

— تحرك .. افتح الباب ! ..

ولم يتحرك ..

فجذبت من ذراعه في قوة ولكن بلا عنف ، وأنا أقول له :

— افتح الباب .. لأمك ..
ونظر سامى الى الباب .. ثم عاد ينظر الى كأنه يستنيث
بى ..

وقلت له فى حنة :

— افتح الباب .. لتأكد بنفسك أنها أمك .
ومد سامى يدا مرتعشة ، يزداد ارتعاشها كلما اقتربت من
الباب .. وأنفاسه تزداد تهدجا ..
ثم مرة واحدة .. فتح الباب ..
ورأى بيندا واقفة أمامه تبسم ..
وتراجع الى الخراء ..
والحلجة فوق شفته العليا تزداد ارتعاشا .. والعرق يتفصد
من كل قطعة فى وجهه ..
وظل يتراجع ..

وكانت هذه هى أهم لحظة .. اللحظة التى ينتقل فيها سامى
من شخصية الرجل الأبيض الى شخصية الرجل الزنجى ..
كانت هذه هى اللحظة الوحيدة التى أستطيع أن أستغلها
لأساعد عقله الواعى على اكتشاف عقله الباطن ..

واقتربت منه وأنا أنظر اليه بكل عيني ، وقلت له فى صوت
أضع فيه كل مالى من قوة تأثير :

— انظر اليها جيدا .. لا ترفع عينيك عنها .. انها تشبه
المرأة الأخرى .. المرأة التى كنت تراها فى صفرك .. انها تكاد
تكون هى .. انظر اليها .. لا تفقد سيطرتك على نفسك .. انك

الآن تذكر المرأة الأخرى .. انها تشبه هذه الفتاة .. نفس العينين .. والشفقتين .. ونفس الابتسامة .. ونفس اللون .. و ..

وسامى يتراجع من أمام بيندا .. وكان تراجعها دليلا على أن عقله الواعى لم يذب بعد أمام عقله الباطن .. وظل يتراجع .. وهو يتخبط فى قطع الأثاث .. ويكاد يقع فوق كل قطعة .. وكله يرتعش .. خطوانه ترتعش .. يدها ترتعشان .. وجهه يرتعش .. وأنا لا أكف عن الكلام .. أتكلم باستمرار ، مخاطبا عقله الواعى ، حتى أنصره على عقله الباطن .. ثم سقط سامى فوق المقعد الكبير .. وأمال رأسه الى الوراء .. وأغمض عينيه .. وأنفاسه تتهدج .. وعرقه يتصبب ..

انه ليس نائما ..

وليس مغنى عليه ..

وأنا واقف أنظر اليه بكل عيني .. أرقب كل خلجاته .. وبيندا واقفة عند الباب تنظر اليه فى لوعة وخوف .. وكنت أنتظر كلمة واحدة تخرج من فمه .. كلمة واحدة هى التى ستحدد مصيره ..

لو خرجت هذه الكلمة بلغة « الولف » ، فقد فشل العلاج .. ولو خرجت باللغة العربية فقد نجح العلاج .. ولنجحت ..

وفتح سامى عينيه .. ونظر الى بيندا نظرات نائمة كأنه ينظر اليها من بعيد .. من بعيد جدا .. ثم عاد وأغمضهما كأنه ينظر

بهما الى داخل نفسه .. ووجهه يزداد امتقاعا .. أصبح وجهه في لون الموت .. وبعد فترة فتح عينيه مرة أخرى .. وخرجت الكلمة ..

تكلم ..
تكلم باللغة العربية ولهجته اللبنانية ضعيفة مريضة متهافنة..
قال :

— نعم .. انها تشبهها ..
وجلس على المقعد في راحة .. راحة الانتصار .. وقلت
وأنا ابتسم كأنى استاذ يختبر ذاكرة تلميذه :
— تشبه من ؟ ..

وألقى سامى نظرة أخرى على بيندا الواقفة على الباب ،
ثم التفت الى قائلا :

— تشبه المرأة الأخرى .. انى أذكرها الآن تماما .. هي
التي روت لى قصة الملك سوتدياتا .. وكنت أنتظرها لتروى لى
مزيدا من الأساطير .. وكنت أتشبث بها عندما تهيم أن تتركنى ..
وألح عليها لتبقى منى .. ثم كنت أسير معها حتى شاطئ النيجر
.. وهناك تصر على أن تتركنى .. لا أدري لماذا .. ثم تعبر وحدها
الجسر المقام هناك .. وأعود وحدى الى البيت .. حزينا لأنها
تركتنى ..

قلت وأنا محتفظ بابتسامتى :
— هل كنت تحدث أباك عنها ؟ ..
قال :

— لا .. كنت أشعر أن بيني وبينها سرا لا يصح أن أطلع عليه أحدا .. ولم أكن أدري ما هو هذا السر .. و ..
والتفت الى وهو يشب بعنقه نحوي وقال في صوت أضعف من أن يحتمل ثورته :
— من قال لك انها أمي ؟ ! ..
قلت :

— سأروى لك كل شيء .. دعني أولا أحققك بحقنة منشطه .. لك في حاجة اليها ..
وكان فعلا في حاجة الى حقنة منشطة .. كنت أخاف على قلبه ان يقف تحت ضغط الأزمة التي يجتازها ، والمجهود العنيف الذي بدله ..

وقمت من مقعدي لأعد الحقنة ، وسامى يتبعني بعينين عاترتين .. وبيندا لا تزال واقفة عند الباب تنقل عينيها بينى وبين سامى في ذهول ، كأنها تنظر الى طقوس يقوم بها ساحر ، وكلما التقت عيناها بعيني سامى ابتسمت له في تردد كأنها تذكره بنفسها .

ولم يكن يبدو على سامى أنه يذكرها .. كان ينظر اليها نظرات ضعيفة كأنه لا يزال يقارن بينها وبين المرأة الأخرى .. ولم يكن وجهه يرتعش ، ولم يكن لأتفاسه صوت — كما كانت تصفه لى بيندا عندما يراها ويتبعها الى القرية — ولكن وجهه كان مستقرا ، وأتفاسه تهدأ في صدره .. وعلى شفاهه ابتسامة مريضة متعبة ..

وقلت لبيندا وأنا أعد الحلقة :

— اجلسي يا بيندا .. وأغلقى الباب وراءك !

وأغلقت بيندا الباب ، وتقدمت في خطوات مترددة ، وعدلت المقعد الصغير الذى ألقاه سامى على الأرض ، لتجلس عليه .. والتفت الى سامى لأرى تعابير وجهه .. كنت أخشى أن يغضب لأن فتاة زنجية تجلس معه فى نفس الغرفة ، وفى نفس مستوى الاحترام .. ولكنه لم يغضب .. بالعكس حاول أن يقوم من على مقعده لينسج مكانه لبيندا .. ولكنه عاد وسقط على المقعد من شدة تعب .. وابتسامته لا تزال بين شفثيه .. وجلست بيندا أمامه وهى تنظر اليه وابتسامة كبيرة تفرح فوق أسنانها البيضاء .

ثم التفتت الى كأنها تستغيث بى ..

انه لا يذكرها ..

لا يذكر أنها زوجته ..

ولا يذكر أنه تعود أن يتبعها كلما رآها ..

وابتسمت لبيندا أطمئنتها ..

ثم كشفت عن ذراع سامى وحققته ، وهو يقول باللغة العربية .. وكان حديثه باللغة العربية زيادة تأكيد لى بأنه اتصرف نهائيا على عقله الباطن .. عقله الباطن أصبح ضعيفا مهزوما أمام عقله الواعى :

— ألن تروى لى القصة ؟

قلت وأنا أبتسم :

— اصبر ..

ثم فتحت دولابى وأخرجت زجاجة كونيالك كنت أحتفظ بها ، وأعطيته كأسا .. شربه وهو ينظر الى بعينين شاكرتين ..
ثم جلست قبالته على حافة السرير ، وأخذت أروى له كل القصة .. كل شيء .. كل التفاصيل .. وأشرح له حالته .. حالة ازدواج الشخصية .. والتصرفات التى كان يأتى بها دون أن يشعر .. وهو يتابعنى بعينين دهشتين والحقنة المنشطة وكأس الكونيالك يصبغان وجهه بلون الحياة .. وكان يقاطعنى :

— هل فعلت هذا .. أنا !!

وأرد عليه :

— نعم .. وستجد الدليل بنفسك !

الى أن رويت له قصة أمه .. وقصة ولادته وطفولته .. ثم قلت له انى رأيت أمه ، ووصفتها له ..
وتعقد وجهه فى تأثر عميق ، وقال :

— كل ما كنت أسمعه ، اشاعات تقول ان أبى تزوج فى صغره من امرأة زنجية .. ولكنى لم أكن أصدق هذه الاشاعات .. ولم أكن أعتقد أن أبى يبلغ من القسوة الى حد أن يحرم أمى منى ..

قلت :

— ان أباك معذور .. انه ضحية المجتمع الاقربى الذى يفرق بين الزوجة الزنجية والزوجة البيضاء ..

وهز سامى رأسه ، وشفتاه مقلوبتان فى مراة كآته لا يقبل
عذرا لأبيه ..

ثم التفت الى بيندا وقال لها باللغة الفرنسية :
— وهل الآنسة تعلم كل ذلك ؟
قالت فى حياء وهى ترخى عينيها :
— لم أكن أعلم أنك ابن عمتى !
وارتفع حاجبا سامى فى دهشة ، وشب بعنقه نحوها ، وقال
بصوت مبهور :

— وهل أنا ابن عمتك ؟
قالت فى خفر :
— نعم ..
وقلت معقبا :
— وهى زوجتك أيضا !
واتنفض واقفا وصرخ :
— وتزوجتك أيضا .. مستحيل .. مستحيل .. هذا ادعاء ..
هذا كذب ..

وانغرورقت عينا بيندا بالدموع ..
وقلت لسامى فى هدوء :
— ان زواجك مسجل فى القبيلة .. وكل أفرادها يشهدون
عليه ..
قال فى حدة :
— ولو ..

قلت :

— هل تذكر قصة هذا الخدش الذى يشق عنقك ..
ورفع كفه بحركة تلقائية وتحسس الخدش فى عنقه كأن
لاموسة لسعته .. ثم قال فى حيرة :
— لا .. لا أذكر !

قلت :

— افه خدش حديث .. لم يحض عليه أكثر من أربعة أيام ..
قال :
— أعلم ذلك .. ولكنى لا أذكر شيئاً عنه .
قلت وأنا أنظر الى بيندا :
— ان بيندا تستطيع أن تذكرك به ..
ولم تتكلم بيندا .. رفعت أصابعها ومسحت بها دموعها ..
وعندئذ أقول لها :

— تكلمى يا بيندا .. لم يعد هناك شيء تخفيه ..
واسقطت بيندا رأسها فوق صدرها ، وقالت فى صوت
خافت :

— كنا قد اتهمنا من الرقص .. وأردت أن تجذبنى داخل
إلكوخ .. ولكنى فررت منك الى الغابة .. وأخذت أجرى ،
وأنت تجرى ورائى .. ونحن الاثنين نضحك .. الى أن لحقت
بى .. لم تلحق بى لأنك أسرع منى .. بل لأنى سمحت لك أن
تلحق بى .. وأمسكتنى .. واقتعلت المقاومة .. أحاول أن أهرب
منك .. وأنت تحاول أن تمسكنى من شعرى .. وخدش ظفرك

عنقك .. غصبا عنى .. وسال الدم .. فجففته لك بشفتي .. ثم
عدنا الى الكوخ ..

وظل سامى ينظر اليها فى تعجب واهتمام ، كأنه يحاول أن
يكتشف نفسه فى وجهها ..

ثم عاد وجلس على مقعده ، ووضع رأسه بين كفيه .. وظل
صامتا ..

وعادت بيندا تجفف دموعها بكف يدها ، ثم رفعت رأسها
فجأة ، وقالت لسامى فى حدة :

— أنا لا يهمنى أنك تزوجتنى .. كل ما يهمنى أنك
كنت تحبنى ! ..

ورفع سامى رأسه اليها ، ونظر اليها طويلا .. وظل ابتسامة
مسكينة يطل من شفثيه .. ثم ألقى برأسه الى الورا وأسنده
على ظهر المقعد ، وقال فى صوت هامس كأنه يحدث نفسه :

— اتنى ماتيس .. أبى أبيض ، وأمى زنجية !

قلت كأنى أخفف عنه :

— هذا ليس عيبا !

قال :

— لا يادكتور .. انك لاتعرف كيف يعامل الناس الماتيس ..

قلت :

— هذا عيب المجتمع .. وليس عيب الماتيس .. ان الماتيس

انسان كامل ، ومن حقه أن يفرض مكاتته على المجتمع .. على
أى مجتمع ..

وهز سامي رأسه في استخفاف ، وقال وهو يهز كتفيه كأنه
يهزأ بمصيبته :

— منرى ..

ثم عاد يضع رأسه بين كفيه ..
وقامت بيندا واقفة في عصبية ، ونظرت الى كأنها تلومني ،
لأنني أفقدتها تأثيرها على سامي ، وقالت في حدة :
— يجب أن أنصرف الآن ..

قلت وأنا ابتسم لها في امتنان صادق :
— شكرا .. لقد أديت دورك كما أردته .. لولاك لما
استطعت شيئا ..

ونظرت الى في ازدراء ، ولم تقدم يدها لتصافحني ..
وهمت أن تتجه الى الباب ، وفجأة رفع سامي رأسه ، وقال
لها في صوت ثابت كأنه انتهى من اتخاذ قراره :
— انتظري .. سأكن معك !

وابتسمت بيندا ابتسامة مترودة ، ووقفت في حيرة كأنها
لا تصدق أن سامي سيذهب معها .

ومد سامي يده يصافحني .. وقال في لهجة جديدة ، ليس
فيها كلامه الكثير ، ولا ضحكاته الفارغة :

— شكرا يا دكتور .. أحسن بأنى استرحت .

قلت وأنا أصافحه :

— متى أراك ؟

قال :

— سأمر عليك ..

قلت :

— يجب أن أراك مرة ثانية .. انى مسافر كما تعلم بعد

غدا

قال :

— سأحاول ..

ومشى مرفوع الرأس الى بيندا .. لا ينظر الى بوز حذائه
كعادته ..

وقالت بيندا فى صوت خافت :

— أعتقد أنه يجب أن أزل وحدى ، وتلحق بى فى
الشارع .. ان الزوج ممنوعون من هذا الفندق كما تعلم ..
ويجب ان اخرج متسللة !

وارتفع رأس سامى فى كبرياء ، وقال كأنه انسان جديد ،
ولهجته اللبناية الضخمة تملأ شذقيه :

— ألم تقولى انك زوجتى .. ان زوجتى لا تخرج من مكان
متسللة .. لا أحد يستطيع أن يمساها ..

ووضع ذراعته فى ذراعها وجذبها نحو الباب ..

والتفتت الى بيندا تبسم ابتسامة كبيرة .. تشكرلى بها ..
وضحت وراء سامى :

— أين تذهب ؟

وقال سامى وهو يختفى من أمامى ، هو وبيندا ..

— لست أدري ..

وكنيت أعلم أن أول ما سيحاوله سامى بعد أن يخرج هو
أن يتأكد بنفسه من صدق المعلومات التي أدليت له بها .
سيحاول أن يكتشف بنفسه تاريخ حياته .. وأصل عقده
وأغلقت بابى وراءهما ، وألقيت نفسي على المقعد الكبير
وأنا اتهد في راحة .. ثم أمسكت بدفتر مذكراتى الطبية ،
وأخذت أسجل ما حدث ..
ولكنى لم أتم تسجيل مذكراتى ..
نمت ..

وفي صباح اليوم التالى ، وفي الساعة العاشرة .. دوت
طرقات عنيفة متمجلة على بابى .. ودخل سليم مهرولا ولهفته
اللبناية تندفق أمامه ، وهو يصيح :
— يا دكتور .. سامى لم يعد الى البيت منذ ليلة أمس ..
ونظرت اليه في اهتمام وقلت :
— هل سألت عنه في القرية ..
قال وهو يكاد يبكى :
— سألت .. انه لم يذهب الى هناك .. ماذا فعلت به
يا دكتور ؟
قلت :
— وهل سألت عن بيندا ؟

قال :

— وجدتهم في القرية يبحثون عنها أيضا .. انها لم تذهب الى هناك .. طمئنني يا دكتور .. ماذا فعلت بأخي ؟

قلت :

— اطمئن .. أخوك شفى .. ومهما حدث سيعود اليك انسانا سليما ..

قال :

— كيف اطمئن ..

قلت :

— تق بى ..

والواقع انى لم أكن مطمئنا على سامى .. انى أعرف أن الطريقة التى عالجته بها ، قد تؤدي الى نكسة .. قد يعود فى حالة أسوأ مما كان فيها .. ولكنى أخفيت مخاوفى عن سليم ، وقلت له بسرعة حتى أشغله عن التفكير فى سامى :

— هل أعددت الحفلة الموسيقية ؟

قال :

— نعم .. أعددتها .. ولكن و ...

وقاطعتة قائلا :

— متى تبدأ ؟

قال :

— فى الساعة الثامنة ..

قلت :

— وهل عاملت سامية كما أوصيتك ؟

قال :

— نعم .. عاملتها كأنها لا تزال في العاشرة من عمرها ..
واعترضت لها ألف مرة عن خريي لها .. وأقنعتها اني محب
بصوتها .. ونعم اني متأكد اني سأضربها مرة أخرى لو سمعت
صوتها ..

قلت :

— وماذا كان تأثير كل ذلك عليها ؟

قال :

— يبدو أنها بدأت تحبني أكثر .. لقد طلبت مني مفتاح
الدولاب .. وأخرجت كل المجلات القديمة وأخذت تتصفحها ..
ثم استمتعت هذا الصباح الى أسطوانة أم كلثوم دون أن تبكي .

قلت :

— عال ..

وعاد يقول في لهفة :

— ولكن سامي ..

قلت :

— اطمئن .. عد الآن الى دكانك . وسأكون ضمن المدعوين
في حفلة الساعة الثامنة .

وهز رأسه في أسى وخرج ..

ولم أفكر في سامية ..

ولكنني كنت أفكر في سامي .. وكنت أسأل نفسي في لهفة :

هل سأراه مرة ثانية ؟

بقيت في الفندق طول النهار أفكر بنصف عقلى في الصدمة
الثاقية التى أعدها لسامية ، وأفكر بالنصف الآخر فى سامى ..
كنت فى انتظار أن يزورنى سامى .. وكنت متلهفا على
أخباره والاطمئنان عليه .. كنت أعلم أنه يجتاز الآن مرحلة
الطفولة بالنسبة للحياة الجديدة التى فتحتها أمام عينيه .. حياته
كابن لأم زنجية .. حياة المائيس .. وكنت أخاف عليه من هذه
الطفولة .. أخاف ألا يحتل عقله هذه الحياة الجديدة ، فيعود
ويختل ، ويضعف أمام عقله الباطن ..
ومرت الساعات ولم يأت سامى ..

ترى أين هو ؟

هل أخذ بيندا وفر من المدينة ، حتى لا يواجه الناس الذين
يعرفهم ، وهو نصف زنجى ؟

هل يحاول أن يتحرى صدق المعلومات التى أدليت له بها ؟
لا أدرى ..

وفى الساعة السابعة والنصف مساء كنت مرتديا ثيابى ..
بدلة كاملة غامقة اللون ، وغم اللهب الذى يفح من الأرض ،
وخرجت من الفندق ، وفى يدى حقيبتى الطيبة الصغيرة ،



واتجهت الى بيت سليم .. بيت العائلة التي تحمل كل عقد
افريقيا النفسية ..

واستقبلني سليم على الباب جزعا ، وقال ولمجته اللبنانية
فرتعش بين شفتيه :

— لا أدري لماذا طاوعتك .. ان هذه الحلقة مهزلة .. انها
فضيحة ستحدث عنها كل الجالية اللبنانية في ياماكو ..
قلت في اختصار :

— المهم هو شفاء سامية ..
ثم استطردت في لهفة :
— هل جاء سامى ؟
وأجاب كأنه يندب أخاه :
— أبدا .. لقد بحثت عنه في المدينة كلها ، ولم أجده ..
ودخلت وراءه ..
وكان سليم قد أعد صالة البيت كما أوصيته .. أقام منصة
كبيرة في الصدر ، جلس عليها الموسيقيون .. وصف أمامها
مقاعد المدعوين ، حتى بدت كمسرح صغير ..
وتلفت الى وجوه المدعوين ، وقدمنى سليم الى بعضهم
باسمى كاملا .. و .. من مصر .. انهم جميعا يحملون طابعا
واحدا رغم اختلاف أشكالهم .. كلهم يحملون فوق وجوههم
هذه الصرامة ، التى تدل على الصراع العنيف الذى عاشوا
فيه ، وهذه القسوة التى جمعوا بها أموالهم ، وهذه الآلية التى
تسيطر عليهم وتخنق عواطفهم .. كل منهم آلة تجمع النقود ..
وعيونهم باردة .. وابتساماتهم لزجة .. ويشربون النبيذ الذى
قدمه لهم صاحب البيت ، فى شراهة ، كأنهم يبحثون عن الدفء
فى هذا الجو الحار .. وحتى أفراد الفرقة الموسيقية ، رغم
أشكالهم المضحكة المتباينة ، تعلو وجوههم نفس الصرامة ،
والعيون الباردة ، والابتسامات اللزجة .. ويعزفون على آلاتهم
كأنهم يعزفون الأرض .. بعنف .. وبلا احساس .. وتحت مغد
كل منهم ، كأس النبيذ !

وبدأ المدعوون الذين عرفنى بهم سليم يسألوننى عن مصر ،
ويبدون حماسا مفتعلا ، مغالى فيه ، للعروبة ..
وأخذت الفرقة الموسيقية تعزف أحد البشارف القديمة ..
وتقاسيم على العود .. وعلى القانون ..
وأنا أتلعت بين الحين والحين الى سامية ..

كانت سامية جالسة فى ركن بعيد من الصلاة .. لم تكن
تشارك فى استقبال المدعوين ولا فى الحفاوة بهم .. ولم تكن
فى حالة تسمح لها باستقبالهم أو الاحتفاء بهم .. كانت باهتة
اللون .. شفتاها ترتعشان رعشة خفيفة .. وتدور بعينيها فى
نظرات حذرة مترددة ، كأنها تبحث عن شىء ..
وكنْتُ أعلم الحالة التى تعانىها ..

إنها الآن تواجه لأول مرة حلمها الكبير الذى عاشت فيه
طفولتها .. عاشت فيه كحقيقة .. ولكنها بدأت تشك فى حلمها ،
بدأت تشك فى الحقيقة الرومية .. فإن البيت لم يشهد حفلة من
هذه الحفلات الا فى أيام أبيها .. فإذا كان الحلم حقيقة ، فلا بد
أن يكون أبوها موجودا فى الحفل .. لو رأت أباهم لتأكدت لها
الحقيقة .. ولن تجد أباهم .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن هذه
حفلة من حفلات حلمها الكبير التى تفتى فيها .. ولكن أباهم ليس
موجودا .. وهى تدور بعينيها تبحث عنه .. تبحث عن الحقيقة ..
ولن تجد أباهم .. ولن تجد الحقيقة .. ستعلم أن ما تبحث عنه
ليس حقيقة .. أنه وهم .. فإذا اكتشفت أنه وهم .. أفأقت ا
وظلت سامية تطلق حولها هذه النظرات الحذرة المترددة ..

ووجهها يزداد يياضا ، وشفتاها تزدادان ارتعاشا ، وعينساها
تزدادان اتساعا .. الى أن انتهت الفرقة الموسيقية من عزف
البشارف والتقاسيم .. وبدأت أصوات المدعوين ترتفع بالكلام
المخمور ، والضحكات الصاخبة .. فهمست في أذن سليم :
— قم وقف على المنصة ، وأعلن أن سامية ستغنى أغنية
لأم كلثوم ..

وقال سليم في حدة :

— مستحيل .. لقد غيرت رأيي .. لن أساعدك في خططك
.. انى لا أفهمك .. ولا أريد أن أفهمك .. ذهقت يا أخى ..
قلت :

— قم .. من أجل سامية ..

قال فى اصرار :

— أهون على أن تموت ، من أن تغنى أمام الناس ..

قلت :

— انها لن تغنى ..

قال :

— من أدراك ؟

قلت :

— انى متأكد ..

قال :

— ولو .. لقد ضيعت منى أخى .. ولن أسمع لك بأن

تضيق أختى ..

قلت فى لهجة حادة :

— هذا ليس وقت جدال .. قم وقدم سامية للغناء .. والا
سأقدمها أنا ..

قال :

— انى أمنعك ..

قلت :

— لن تستطيع .. لقد أصبحت أفا المسئول عن سامية ..
بموافقتك ..

قال فى تردد :

— لقد سحبت موافقتى ..

قلت :

— تذكر أن كل ما استنتجته عن حالة سامى قد ثبتت لك
صحته .. وهذا يكفىك لتجاوز معى فى علاج سامية ..
ونظر الى سليم نظرات حائرة ، وواجهته بنظرات جامدة
صارمة .. ثم تردد قليلا ، ورفع كأسه وقذف بكل ما فيه فى
جوفه ، ثم قام ووقف على المنصة ورفع ذراعيه ليسكت
المدعوين ، ثم قال بصوت محسرج ، وهو ينظر فى وجوه الناس
نظرات حادة متحدية ، كآله يتهددهم :

— اخوالى .. أقدم لكم الآن مفاجأة .. أختى سامية
ستغنى لكم أغنية لأم كلثوم ..

ومرت لحظة بهت الناس فيها .. لم يكن أحد منهم يعلم
أن سامية تستطيع أن تغنى .. ثم التفتوا جميعا ناحية سامية
واللهشة لا تزال عالقة فى عيولهم .. ثم بدأوا يصتقون ،

تصفيقا حادا متواصلا ، وقد علت شفاههم ابتسامات ساخرة ،
كأنهم على وشك أن يشاهدوا مسرحية مضحكة ..
وارتدت سامية الى الوراء عند ما سمعت صوت التصفيق ،
وتشبثت بقمعتها ، وفي عينيها نظرات جزعة .. لقد اختلطت في
خيالها — مرة ثانية — حركة الأيدي وهي تصفق ، بحركة
يدي سليم عند ما كان يصفعها اذا همت بالغناء .. ولكن عقلها
الواعي تنبه الى أن سليم قد اعتذر لها عن صفعها ، ووعدها
ألا يعود ويضربها ، وأقسم لها أنه معجب بفنائها .. فمادت
واعتدلت في جلستها .. وانطأت نظرات الخوف في عينيها ،
وحلت محلها نظرات التردد والشك .. ووضعت أصبعها في
فمها كالأطفال ، ثم رفعت من فمها .. كأنها تنبّهت الى أنها
ليست طفلة !

لقد بدأت المعركة تقترب الآن من ذروتها ..
معركتها النفسية ..

المعركة بين عقلها الباطن الذي لا يزال يعيش في عصر
العاشرة ، ويسيطر عليها .. وبين عقلها الواعي الذي يحاول أن
يتحرر من هذا الوهم الذي يعلو عليه العقل الباطن ..
وظلت في مكانها ..

وأنفاسها تتردد في حشجة كأنها تخرج من منفاخ مثقوب .
ووجهها أصبح في لون الفراغ ..
وعيناها تلمعان بالشك والحيرة ..
وجاء سليم وجذبها من ذراعها في رفق وهو يقول :

— تعالى يا سامية .. الناس ينتظرونك !
واستسلمت لجذبة أخيها .. وقامت .. وسارت بين المدعوين
متخفية كأنها تسير في نومها .. ساهمة .. مبهوتة .. ألقاسها
تخرج من المنفاخ المثقوب ..
وساعدها سليم على ارتقاء المنصة ..
حملها حملا ، وأوقفها أمام الناس ، كأنه يزرعها في
الأرض ..

وظلت سامية واقفة تنظر الى الناس في حيرة ، كأنها
لا تدري لماذا وقفت أمامهم .. والعرق البارد يتقصد فوق
وجهها المريض .. وسكت الناس في انتظار أن تبدأ في الغناء ..
وهي لا تزال تنظر في وجوههم في حيرة .. نظرات شاردة ..
مترددة .. ثم بدأ الناس يتصايحون :
— غنى يا سامية .. أسمعينا يا سامية ..

وهي ترتعش في وقتها .. والبلاهة ترسم على كل
ملاحظها ..

وكتت أعلم أنها لا تسمع تصايح الناس .. ولكنها تسمع
صياحا آخر ينطلق في داخلها .. انها في هذه اللحظة معزولة عزلا
تاما عن عالمها الخارجى .. وتعيش بكل خلجاتها وبكل قواها في
عالمها الداخلى .. تعيش في معركتها النفسية .. وهي معركة
جنيفة قاسية ، تستنزف كل قطرات الحياة منها ..
وأحسست بالشفقة تمزق قلبى وأنا أرى سامية في هذا
الموقف ، وأرى مدى ما تعانيه من عذاب .. وبدأ عقلى يتحرك

بسرعة باحثا عن وسيلة أخفف بها من حدة المعركة التي
تعانيها .. ولم تكن هناك أية وسيلة .. كان يجب أن أتركها
تجتاز المعركة وحدها .. وكنت اعلم انه كلما احتدمت المعركة
وازدادت عنفا وقسوة ، اقتربت سامية من الشفاء ..

وأفراد الفرقة الموسيقية ينقرون على آلاتهم قترات غير
منتظمة ، استعدادا لعزف اللحن الذي تغنيه سامية .. هذه
القترات تزيد من حدة المعركة التي تجتازها سامية .. انها
تسقط على أعصابها كقطع الطوب فتثيرها .. وتسقط في عقلها
النواعي فتزيده حماسا .. وتسقط في عقلها الباطن فتتحرك
ذكرياتها القديمة .. وخفت على سامية ... خفت عليها ألا تتحمل
كل هذا فتنتهي في لحظة الى الجنون المطلق ..

وكنمت خوفي ، وأنا أدعو لها في سري .. واضع عيني في
عينيها وهي واقفة أمامي فوق المنصة ، وأبتسم لها مشجعا ..
ولكنها لا تراني .. انى متأكد أنها لا تراني .. نظراتها تائهة
باردة ..

ومال عازف العود الى الأمام وسأل سامية في استخفاف :
— ماذا تغنين ؟

ولم ترد سامية عليه .. لم تسمعه .. انها واقفة والبلاهة
ترسم على كل ملامحها ..

واشتد تصايح الناس من حولها .. وبدأوا يتبادلون
النكات .. نكات ثقيلة سمجة .. ويضحكون .. ضحكات
عالية منفرة ، كصراخ الرعب .. وضحكاتهم تنكس على سامية

كضربات المaul .. تهدبا .. فترنج في وقتها .. وتشتد لمعة
الحيرة في عينيها .. وتبرز خطوط البلاء في ملامحها
وعاد عازف العود يسأل سامية وهو يشارك الناس في
ضحكاتهم :

— ماذا تغنين ؟

ولم ترد عليه .. لم تسمعه ..
وتقدم سليم ، ووجهه مزروود من الغيظ ، ومن المهالة التي
يحص بها ، وقال لعازف العود :

— اعزف ، غلبت اصالح في روى ..
ونظر اليه عازف العود في استخفاف ، ثم بدأت الفرقة
الموسيقية تعزف مقدمة لحن « غلبت اصالح في روى » ..
وانتهت سامية فجأة ..
أخذت تتلفت حوالها كأنها لا تدري من أين تنبث هذه
الموسيقى .. وفي عينيها خوف .. خوف كبير ..
وأعادت الفرقة الموسيقية عزف مقدمة الأغنية ..
وفتحت سامية فمها ..
وسقط قلبى ..

خفت أن تغنى .. لو غنت ، فمعنى ذلك اقتصار العقل
الباطن .. معنى ذلك أنها لا تزال تعيش في عمر العاشرة ..
العمر الذى توقف عنده نمو شخصيتها ..
ولكنها ظلت مفتوحة الشفتين ..
لم تغن ..

واشتدت الضحكات الصارخة من حولها ..
ضحكات ..
ضحكات ..
وأفواه مفتوحة الى آخرها ..
وعيون ينطلق منها برق مخيف ..
ورءوس تمتد اليها كأنها تريد أن تأكلها ..
وأنا أنظر الى سامية بعينين ثابتتين ، مدققتين .
وعادت تترنح ترنحات عنيفة ، ذات اليمين ، وذات اليسار ..
والى الخلف ، والى الأمام .. كأنها تحاول أن تهرب ، وكأن
قدميها مقيدتان فى الأرض ..
وفمها لا يزال مفتوحا .. ووجهها الباهت يرتعش ..
ثم فجأة ..
توقفت عن التريح ..
وانطبق فمها ..
ووقفت ارتعاشة وجهها ..
وهدأت النظرات فى عينيها ..
وانتظمت أنفاسها ..
كأنها أفاقت من حلم ..
وبدأت تنظر الى الناس كأنها تعرفهم واحدا واحدا ..
نظرات مسكينة مريضة ..
ثم جرت دموع صامتة فوق عينيها .. وهى لا تزال تنظر

الى الناس من خلال دموعها ، كأنها تعرفهم واحدا واحدا ،
وكانها تلومهم ..

والفرقة الموسيقية لا تزال تعزف لحن « غلبت اصالح في
روحي » ..

والضحكات لا تزال تنطلق في قسوة ..
وسليم واقف خلف سامية فوق المنصة ، ودموع الغيظ
والمهالة تملأ عينيه

وأغمضت سامية عينيه ..

وترنحت في وقتها ..

وفجأة ..

سقطت على أرض المنصة ، فاقدة الوعي ..

وسكتت الموسيقى ..

وسكتت الضحكات ..

ومرت فترة صمت رهيبية ..

واستراح قلبي ..

لقد لجمت الصدمة ..

وقمت من مقعدي سريعا ، وقفزت فوق المنصة وتماولت
مع سليم على حمل سامية الى غرفتها والناس من ورائنا يلغظون
بكلام كثير .. ثم طلبت حقيبتى الطبية ، وحقتها بالكورامين
لتنشط القلب ، وجلست بجانب سريره الى ان تفيق ..

وكنت أعلم ما حدث لها بالضبط ..

لقد رأيته يحدث على وجهها ..

لقد صعدت الى المنصة وهى فى شك من أنها تستطيع أن
تغنى .. فى شك من حلمها الكبير الذى أصبح حقيقة تعيش
فيها ، وأوقف نحو شخصيتها .. ويحاول العقل الباطن أن يتغلب
على هذا الشك .. أن يقنعها بأنها تستطيع أن تغنى ، وأن يدفعها
الى الغناء فعلا .. وذلك فى الوقت الذى كان فيه العقل الواعى
يحاول تأكيد هذا الشك ، ويحاول أن يمنعها من الغناء .. وفى
خلال المعركة بين العقل الواعى والعقل الباطن ، كانت قسرات
الآلات الموسيقية ، والضحكات الصاخبة المرعبة تساعد العقل
الواعى .. لأنها أصوات تصل الى سامية من خارجها لا من
داخلها ، فتلمس العقل الواعى .. وكلما هم العقل الباطن أن
ينتصر زادت النقرات والضحكات فى تنبيه العقل الواعى .. الى
أن انتصر أخيرا .. هزم العقل الباطن وأجبره على التنازل عن
سيطرته .. عن عرشه !

وعندما انتصر العقل الواعى ، عادت شخصية سامية الى
النمو ..

ونمت فجأة ..

قفزت خمسة عشر عاما مرة واحدة .. من سن العاشرة الى
سن الخامسة والعشرين .. أصبحت ترى الأشياء حولها ، وترى
نفسها ، بشخصيتها الحقيقية .. شخصيتها الكاملة السليمة ..
ولم تحتل سامية هذه القفزة ..

لم تحتل هذه النقلة المفاجئة من عمر الى عمر ..
فأغمى عليها ..

والمصاب بحالة التوقف في نمو الشخصية ، عندما يترد
النمو الطبيعي للشخصية .. أى عندما يشفى من حالته .. لا يتسنى
ماضيه .. أبدا .. انه يذكر كل شيء في الماضي كأنه لم يكن
انسانا شاذا مريضا .. وكل ما يحدث له أن تصرفاته بعد شفائه
تتخذ طابعا طبيعيا .. يصبح انسانا عاديا .. يتصرف التصرفات
التي عليها عليه عمره ، لا عمر الطفل الذى توقف عنده نمو
الشخصية ، وكل ما ينقصه هو بعض التجارب التى كان يجب
أن يمر بها لو كان انسانا عاديا ، وهى تجارب يمكن أن يكتسبها
بسرعة ..

هذه هى حالة سامية ..

وعندما تفيق لن تواجه مشكلة فقدان الذاكرة بالنسبة لماضيها
.. بل لن تحس إطلاقا بأنها كانت مريضة وشفيت .. كل ما هنالك
أنها ستبدأ تحكم على تصرفاتها الماضية ، بأنها كانت خاطئة ..
تصرفات عيال .. ثم تبدأ فى محاولة تصحيح هذه التصرفات ..
ستعرف أنها كانت سيئة التصرف عندما كانت تبكى وتصرخ
عندما تسمع صوت أم كلثوم .. وستعتبر أن ذلك كان اقاعالا
مغالى فيه سببه اعجابها بصوت أم كلثوم .. وستتبه الى أنه
ليس من اللياقة أن تجلس واصبغها فى فمها كما كانت تفعل ..
ولن تعتبر أن ذلك كان مرضا أو شذوذا فى شخصيتها ، بل مجرد
عادة سيئة يجب أن تتخلص منها .. وستواجه ببساطة حلمها
الكبير .. ستعرف أنها كانت تصحب أباهما الى الحفلات التى
قام له فى لبنان ، وأنها كانت تغنى أمام الجمهور .. وستعرف

لنفسها أن أباهما كان يستحضر لها مدرسين خصوصيين لتدريتها
على الغناء .. وستعترف أيضا بأنها كانت تحلم — وهي صغيرة
— بأن تكون مغنية مشهورة .. متواجده كل ذلك ببساطة ،
وستعترف بأن هذا الحلم قد ولى ، كما ولت طفولتها ، وأنها
الآن لا تريد أن تكون مغنية ، ولا تريد أن تغنى ، إلا لنفسها ،
كما تغنى أى فتاة فى عمرها لنفسها .. بل ستعترف أنها جاءت
الى فى الفندق وطلبت منى أن أصحبها الى لبنان ، وألى
أطلعتها على الصحف القديمة التى نشرت صورتها وستعترف أن
كل ذلك كان مجرد تصرفات خاطئة ..

ستفقد سامية كأنها لم تكن مريضة أبدا ..
ولم أحاول أن أفقد سامية بالمنبهات ، تركتها تترتاح فى
نومها ، ولو أنى أعلم أنه نوم مزعج وأسمع أنفاسها تتردد أمامى
فى ضيق .. كأن شيئا يحاول أن يخنقها ...
وبعد أكثر من ساعة ، فتحت سامية عينيها ، وتلفتت
حواليها ، وعندما رأتنى بجانبها ، اتففت مفعورة ، جالسة
فوق السرير ، وقالت فى صوت محشرج :

— ماذا حدث ؟ ..

قلت ببساطة وأنا أبتسم لها :

— أغمى عليك ..

قالت :

— لماذا ؟

قلت :

— لأنك ضعيفة ..

قالت في غضب :

— وكيف يحملنى سليم ويوقننى أمام الناس لأغنى لهم ..
انه مجنون ..

قلت وأنا محتفظ بإبتسامة طيبة :

— لقد قال لى انك تجيدين الغناء ، وانك سبق أن غنيت
أمام الجمهور فى بيروت ..
قالت :

— كان ذلك زمان .. وأنا طفلة .. ومنذ أكثر من خمسة
عشر عاما لم أغن .. سليم نفسه كان يمنعنى من الغناء ..
قلت :

— ربما أراد أن يقدم مفاجأة لدعويته ..

قالت :

— لا بد أنه كان سكرانا ..

قلت :

— لقد كان سكرانا فعلا ! ..

وكان سليم فى هذه الأثناء خارج الغرفة .. ربما كان
فى المطبخ ، أو يودع آخر مدعويه .. ثم جاء الى الغرفة يسير
على أطراف أصابعه وفوجئ بأخته تبخلق فى وجهه غاضبة ..
وقالت له سامية فى حدة :

— هل جئنت .. كيف تعمل ذلك بى ..

وغمرت لسليم بعيني ، وفهم غمزتي ، فقال وهو لم يفق
بعد من دهشته :

— آسف .. حقك على يا أختي ..
قالت ولهجتها تعبر عن أنها تحدث أخاها الأصغر :
— هذه أول مرة تسكر فيها الى هذا الحد ..
وقال سليم وابتسامة خفيفة تعلو شفثيه :
— آسف ..

وقمت واقفا وأنا أقول لها :
— الآن .. يجب أن ترتاحي .. وغدا يجب أن تذهبي الى
طبيب ليصف لك دواء مقويا ..
ثم فتحت حقيبتى ، وناولتها قرصين صغيرين من دواء ،
« البرجال » النوم ، وقلت لها :
— هذه الحبوب لتساعدك على النوم ..
وانتظرت الى أن ابتلعت القرصين ، ثم مدت يدي مصافحا ،
وأنا أقول لها :

— تصبحى على خير ؟ ..
وشدت على يدي وهى تقول فى لهجة حازمة مستقيمة :
— شكرا يا دكتور .. هل نراك غدا ؟
قلت :

— من سوء حظى .. مضطر أن أسافر غدا
قالت :

— مع السلامة .. لا تنسنا فى مصر ..

قلت :

— لن ألساكم أبدا .. في أى مكان ..
ومخيت أن أفضى لأقبلها في جبينها .. لقد شعرت في هذه
اللحظة أنها ابتى .. هذه الشخصية الجديدة أنا الذى صنعتها ..
أنا الذى اكتشفتها .. انها ابتى .. وقد يكون ذلك غرور
الطبيب .. ولكن لا شيء أمتع في حياة الطبيب من لحظات غروره
ووقتته بنفسه عندما ينجح في علاج حالة تعرض عليه ..

وخرجت من الغرفة ..
وأطلقا سليم نور حجرة سامية ، وخرج ورائى وهو يهمس :
— ماذا حدث يا دكتور ..

قلت :

— هل توصلنى الى الفندق ؟ ..

قال في حماس :

— طبعا ..

قلت :

— سأروى لك كل شيء في السيارة ..
وركبت بجانب سليم ، وقاد سيارته وهو ينظر الى متلفها ..
وتجاهلت لهفته وقلت له :

— هل نستطيع أن نصل الى القرية الآن ؟

قال في دهشة :

— لماذا ؟

قلت :

— لعل سامى ذهب الى هناك .. انى أريد أن أراه قبل أن
أسافر ..

وسكت سليم ، وهو يقود السيارة فى اتجاه الجسر المقام
على نهر النيجر ، والطريق الطويل الذى يشق الغاية ويؤدى الى
القرية ..

وأخذت طول الطريق أشرح له حالة سامية ، وكيف أعددت
لها الصدمة التى أعادت لشخصيتها نموها الطبيعى ، وهو يستمع
الى مبهورا كأنى أطلعه على عالم جديد لم يتصوره أبدا ..
ثم قال وهو لا يزال مبهورا :
— هل أقول لسامية هذا الكلام ..
قلت :

— لا .. اننى أطلع المريض على حقيقة حالته عندما يفيد
اطلاعه فى علاجه .. كما فعلت مع سامى .. ولكن سامية ليست
فى حاجة الى معرفة حقيقة المرحلة التى كانت تجتازها .. وقد
تربكها معرفتها بها .. ولكن .. بعد عمر طويل .. عندما تشيخ
وتشيخ سامية معك .. تستطيع أن تروى لها كل ما حدث
كأسطورة ..

وسكت سليم وهو لا يزال هائما فى دهشته ..
ووصلنا الى القرية ..
انها قطعة من الليل ..

لا شئ يبدو منها .. حتى أكوأخها لا تبدو الا كأشباح
رابضة فى الظلام ..

وحمل سليم مصباحه البطارية الذي يحتفظ به دائما في درج
سيارته .. وسار بجانبى ، تتقدمنا الحلقة الصغيرة المضينة التي
يطلقها المصباح ..

ولم تقابل أحدا من أهل القرية .. كأن أهلها هجروها ..
واتجهنا الى كوخ الكاباكا ، وقلبي يرتعد من الرهبة ..
وسلط سليم مصباحه على باب الكوخ .. ثم قرع عليه قهرا
خفيفة .. ثم اشتد في النقر حتى أصبح يضرب الباب بكلتا
يديه .

وفجأة افتتح الباب وانطلق منه عملاق في لون الظلام ..
عار الا من قطعه صغيرة من القماش الأبيض يلفها حول وسطه
ويتركها تتدلى فوق فخذه .. وبحركة مفاجئة خطف المصباح
من يد سليم ، وسلطه على وجهنا .. وهو يصيح في صوت
قوى ، وبلغه « الولف » :

— من ؟

وقال سليم باللغة الفرنسية في صوت مرتعد :

— نحن ..

ورأيت وجه الكاباكا في ضوء المصباح ، يتعاض وهو ينظر
الى سليم ، ثم يخف امتعاضه وتعلوه ابتسامة ساخرة ، وهو
ينظر في وجهى ، وقال بلهجة ليس فيها ترحيب :

— ماذا تريدان ؟

قلت وأنا أحاول أن أكون رقيقا :

— جئنا نسأل عن سامى ..

وارتفع الغضب على وجه الكاباكا ، وقال لى كأنه يتهمنى :

— سامى ليس هنا .. ولا ييندا !

ثم ارتفع صوته وقال لى فى حدة :

— لقد جئت الينا لتنقذ سامى .. فضيقت سامى ، وييندا ..

قلت وقد أحسست أنه يهيننى :

— سامى أهد .. انه الآن انسان كامل ..

قال :

— لن أصدقك ولو أقسمت لى .. كل ما أصدقه أن ابنتى

ليست هنا .. ولا سامى .. وقد أرسلت ثلاثة من أبنائى للبحث

عنهما .. ولم يعودوا بعد .. ان القليلة كلها اقلب حالها ، وفقدت

هدوءها منذ جئت الينا من مصر ..

قلت فى اصرار :

— ابنتك ستعود اليك .. وسامى !

قال :

— قلت لك انى لن أصدقك ..

قلت بسرعة :

— صدق السماء .. صدق البرق .. السماء هى التى

أمرتك بأن تطلعنى على السر الكبير ..

ونظر الى الكاباكا نفس النظرة الساخطة المتعضة ، ثم

قال باستخفاف متجاهلا قولى :

— هل تريدان شيئا آخر ؟

ووقعنا صامتين ..

وعاد الكاباكا يقول وهو أكثر حدة وضيقا :

— قلت لكما ان سامى ليس هنا ..

وقلت وأنا أبادله حديثه :

— أسعدت مساء .

ومد سليم يدا مرتعشة وأخذ المصباح من يد الكاباكا ،
وسار بجانبى .. وسمعنا باب الكوخ يصفق وراءنا فى عنف ..

وهمس سليم فى صوت مرتجف :

— انه غاضب ..

قلت وقد هدأت حديثى :

— له حق ..

وركبنا السيارة ، وقطعنا مسافة طويلة ونحن صامتان ، ثم
قال سليم فى صوت متردد كأنه يخشى أن يغضبني :

— ترى هل تدرى ما يمكن أن يحدث لسامى ؟ ..

قلت باقتضاب وقد هدنى التعب :

— لا .. لا أدرى .. ولكننى واثق أنه الآن أحسن حالا ،

وأقدر على التصرف مما كان ..

وسكت سليم ..

قطعنا بقية الطريق صامتين .

وعندما وصلنا الى الفندق ، وقبل أن أنزل من السيارة ..
قال سليم باللغة الفرنسية ، وأنا أعرف أننا نستعمل اللغة
الأجنبية دائما عندما نريد أن نعبر عن شئ يخرجنا أن نعبر عنه

باللغة العربية .. لأن اللغة الأجنبية بالنسبة لنا أقل صراحة من
اللغة العربية :

— دكتور .. هل أستطيع أن أسالك كم أتعابك ..
وابتسمت ابتسامة متعبة ، وقلت وأنا أضع قدمي على
الأرض :

— لا شيء ..

قال :

— ولكنك طبيب محترف .. وقد تعبت معنا ؟

قلت :

— وأتمتع بعبثي معي بكرمكم ومصاحبتى في مشاهدة
ياماكو ..

قال :

— ولكن .. دكتور ..

قلت أقاطعه :

— تصبح على خير .. هل سأراك قبل أن أسافر ..

قال في حماس :

— طبعاً ..

وصعدت الى غرفتي ، قبل أن يعود ويسألنى عن أتعابى ..

وكانت الساعة الخامسة صباحاً ..

ونمت ..



لم أله سوى ساعتين ، وقمت في الساعة الثامنة ، وتناولت
افطاري في الغرفة ، وأنا أعد حقائبي بسرعة ، وأعد نفسي لرحلة
طويلة .. فقد كان على أن أستقل طائرة « اير افريكا » الى
دكار .. ثم أستقل طائرة « اير فرانس » الى الدار البيضاء .. ثم
طائرة أخرى الى روما .. ثم طائرة شركة مصر الى القاهرة ..
ثلاث ليالٍ سأقضيها طائرا !

وخرجت من غرفتي ، ووجدت سليم ينتظرنى في بهو الفندق
ووجهه مرهق وعيناه غائرتان .. وقلت له وأنا أعرف ما يشغله :
— هل عاد سامى ؟
وقال فى يأس :
— لا ..

قلت وأنا أكاد أشاركه يأسه :
— وكيف حال سامية ؟
وعلت وجهه ابتسامة صغيرة :
— أظن أنها أصبحت افسافة أخرى .. تصور .. لقد قامت
فى الصباح وأخذت تشرف على نظافة البيت .. عمرها ما فعلت
هذا ..

وابتسمت معه ابتسامة صغيرة أيضا .. فلم نكن نستطيع
— لا أنا ولا هو — أن لبثسم ابتسامة كبيرة ، الا اذا عثرنا
على سامى .. أو على الأقل عرفنا شيئا عنه ..
وصحبني سليم الى المطار ، وبدأ يساعدنى فى انجاز جواز
سفرى ، وتذكرة الطائرة .. وأنا أتلفت باحثا عن سامى ..

والواقع أن سليم لم يكن يساعدنى... كان يقيم ضجة كبيرة
ويدخل فى مشادات عنيفة مع موظفى الجمرک والمطار ، لا مبرر
لها .. ولكنه كان يريد أن يثبت لى أنه يساعدنى ..
وقبل أن أخرج من الجمرک ناولنى سليم لفافة كبيرة كنت
قد رأيتها طول الوقت فى السيارة .. وقلت فى دهشة :
— ما هذا ؟

قال :

— هدية صغيرة ..

وحاولت أن أعترض ، ولكنه قال فى رجاء صادق :
— أرجوك يا دكتور ..

وخرجت من الجمرک أحمل هدية سليم ، وأنا لا أزال
أتلقت باحثاً عن سامى .. لعله يأتى فى آخر لحظة ..
وخرج معى سليم ، حتى أوصلنى الى باب الطائرة .. ثم
مد يده يصافحنى قائلاً :
— شكراً يا دكتور ..

ثم لم يتمالك نفسه ، فاحتضننى ، وقبلنى فى كتفى ،
والدموع تبرز فى عينيه .. ان سليم رغم كل شيء انسان
عاطفى ..

وربت على ظهره .. وأنا أقول له :

— اطمئن .. سامى سيعود !

ثم صعدت الى الطائرة ، وقبل أن أدخل من بابها ، التفت

ألقى نظرة أخرى على المطار .. لم أكن أنظر الى سليم ، ولكنى
كنت أتعلق بآخر أمل ، لعلى الملح سامى ، جاء يودعنى .
وأغلق باب الطائرة ..

وزحفت على الأرض ..

ثم حلقت .. وهى ترتعش كالعصفور .. انها طائرة «داكوتا»
صغيرة ، جافة متعبة ، رغم أن «اير افريكا» فرع من «اير
فرانس» .. ولكن لمجرد أن طائرتها تعمل على الخطوط الداخلية
فى افريقيا السوداء ، وقد يركبها الزنوج .. كان يجب أن تكون
طائرات حقيرة متعبة ..

ولم أحاول أن أنظر الى الغابات من تحتى .. كنت طوال
الوقت أمتعِد تعاصيل رحلتى فى افريقيا ، والوجوه التى
قابلتها .. لقد كانت رحلة مثيرة ، ووجوها نادرة .. وقد اكتشفت
شيئا فى افريقيا .. شيئا لم يخطر على بال الرحالة مستائلى أن
يكتشفه .. ولكن اكتشافى لم يتم .. لن يتم اكتشافى الا اذا
علمت ما حدث لسامى ..

مضت عشرة شهور على عودتي من افريقية ..

عدت الى عيادتي في ميدان سليمان باشا مستقبل مرضاي ..
وأنا لا أسميهم مرضى ، ولكنى أسميهم « حالات » .. ورغم
كثرة الحالات التي عرضت على منذ عودتي الى القاهرة الا أنني
لم أستطع أن أفقد اهتمامي بالحالتين اللتين اكتشفتهما في
افريقيا .. حالة سامي .. وحالة سامية .. خصوصا حالة سامي ..
والسبب في تركيز اهتمامي على حالة سامي ، انها حالة لا تمثل
فردا ، ولكنها تمثل مجتمعا .. مجتمع كامل قائم في افريقيا وفي
آسيا هو مجتمع الأولاد المخلطين ، الذين يختلط في عروقهم الدم
الابيض والدم الملون .. أو مجتمع « المائيس » كما يسمى في
افريقيا ..

وبلغ من شدة اهتمامي بمقعدة هذا المجتمع اني فكرت في
أن أكتب بحثا علميا أقدمه في اجتماع مؤتمر الأطباء النفسانيين
القادم .. بل اني بدأت فعلا في كتابة هذا البحث ، ووضعت
عنوانا له « عقيدة المائيس » .. ليالى كثيرة قضيتها ساهرا في
بيتى بعد انتهاء عملي في عيادتي ، وجلد النمر والتمثال الأسود



الصغير ، اللذان أهداهما لى سليم ، موضوعان أمامى .. أعد هذا البحث .. وأراجع المذكرات التى كتبتها عن سامى ، وعن وضع الماتيس فى المجتمع الافريقى ، وأقلب فى الصور الفوتوغرافية التى التقطتها أثناء رحلتى ، وأبخلق فى الوجوه التى صورتها — ومنها صورة سامى — كأنى أحاول أن أقرأ فيها ما لم أقرأه فى الكتب العلمية الكثيرة التى بحثت هذا الموضوع ..

وأثناء اعدادى لهذا البحث ، خطر لى خاطر غريب ، اعتبر ، خائرا جريئاً من الناحية العلمية ..

فقد سبق أن قلت أن عقدة الماتيس ، هى عقدة الوقوف بين مجتمعين متعارضين .. مجتمع البيض ، ومجتمع السود .. عقدة الوقوف فى الوسط .. فلا يستطيع الفرد من الماتيس أن يتقدم الى الأمام كى ينضم الى البيض ، أو يتراجع الى الخلف لينضم الى السود ..

ويؤثر هذا الموقف فى كل كيان .. يؤثر فى عقليته .. فى عواطفه .. فى تصرفاته .. ويحدد له مركزا اجتماعيا خاصا ، يجد نفسه مجبرا على أن يبقى فيه .. ولكن ..

كيف انتهى الماتيس الى هذا الموقف .. هل يكفى — من الناحية العلمية لا الاجتماعية — أن يولد من أب أبيض أو أم زنجية ، حتى يجد نفسه فى هذا الموقف ؟
لا ..

لقد انتهى الماتيس الى هذا الموقف لأنه فقد القدرة على الاختيار بين المجتمعين الأبيض والأسود .. فقد ارادة الاختيار . كيف فقدما ؟

سحبها منه المجتمع الذي يحيط به منذ أن يولد .. فالطفل الماتيس يفتح عينيه على الحياة ، فيجد مجتمع البيض يرفضه ، ومجتمع السود يرفضه .. وتكون ارادته لم تكون بعد بحيث يستطيع أن يفرض نفسه ، أو يفرض وجوده على أحد المجتمعين ، وأن يقاوم هذا المصير الذي يرضاه عليه .. أى أنه يفقد منذ طفولته ارادة الاختيار ، و ارادة مقاومة المصير .. ويشب ويكبر وهو فاقد هذه الارادة ، مستسلم لهذا الوضع الذي فرض عليه ...

ولكن ..

لنفرض أن طفلا من الماتيس قد ولد ، وفتح عينيه على الحياة ، وهو كامل الارادة .. وهو يحمل ارادة رجل كامل قوى .. فهل يستطيع هذا الطفل أن يحدد مصيره .. هل يستطيع أن يتحرر من عقدة الوقوف في الوسط .. وأن يفرض وجوده على أحد المجتمعين .. قاما أن يكون أبيض له كل مقومات شخصية البيض ، أو أسود له كل مقومات شخصية السود ؟ ..

هذه هي حالة سامى ..

لقد ولد سامى كأحد أبناء الماتيس ، وهو يحمل ارادة رجل قوى .. ولد وهو في الثلاثين من عمره ..

قبل ذلك لم يكن يعرفه أنه ماتيس .. وعاش طفولته وشبابه
في مجتمع مستقر من الناحية النفسية ، تكونت له فيه ارادة
كاملة يستطيع أن ينطلق بها من موقف الوسط ، ويسير ما شاء
من خطوات الى الأمام .. لم تفرض عليه شخصية الوسط ، ولا
عقلية الوسط ، ولا قناليده الوسط ، ولا عواطف الوسط ، ولا
الاحساس الدينى الوسط .. ثم بعد ذلك .. بعد أن شب
كإنسان كامل ، أعيدت ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس ..
فهل يستطيع أن يستعمل ارادة الاختيار ويفرض وجوده على
أحد المجتمعين اللذين يحيطان به .. أم يغلبه المجتمعان
— الأبيض والأسود — ويفرضان عليه موقف الوسط ؟

هذا هو الحاطر الجرىء الذى خطر لى وأنا أعد بعثى ..
وقد أتعينى هذا الحاطر كثيرا ، ودفعنى الى بذل كثير من
الجهد فى محاولة تحقيقه وإثباته من الناحية العلمية ..
ولكنى لم أكن أستطيع أن أحققه وأثبتته الا اذا جاءتنى
أخبار سامى ، ووقفت على تطورات نفسه ، بعد أن أعدت
ولادته من جديد كأحد أبناء الماتيس ..
ولم تصلنى أى أخبار عن سامى ..

وكنت عقب عودتى من افريقيا قد انتظرت أكثر من شهر ،
لعل رسالة تصلنى من سامى أو سليم .. رسالة شكر على الجهود
التي بذلتها لهم .. خصوصا وأنى تركت لسليم عنوانى ،
وأوصيته أن يكتب لى ليطمئننى على حالة سامى وسامية ..
ولكن لم يصلنى شيء .. ولم أستطع أن أفسر هذا الاهمال الا

بأن أحداثا قد وقعت في محيط العائلة ، منعت سليم من الكتابة الى .. واشتدت لهفتي أو على الأصح ، شهوتي الاستطلاعية كطبيب نفسي ، على الوقوف على هذه الأحداث .. فكتبت رسالة الى سليم .. رسالة رقيقة أشكره فيها على ضيافته لي ، وعلى مصاحبتى في الطواف بمدينة باماكو ، وأطمئن فيها على صحة أفراد العائلة .. ولم أحاول في رسالتي أن أتعرض لحالة سامى وسامية بالتفصيل ، لأنى لم أكن أعرف شيئا عما يمكن أن يكون قد حدث لهما من تطورات ..
وانتظرت شهرا ..

ولم يصلنى الرد ، رغم أنى أرسلت الرسالة بالبريد الجوى العاجل المسجل ..
وانتظرت شهرا آخر ، وأنا أعلل نفسى بأن المسافة بين القاهرة وباماكو بعيدة ، والمواصلات بينهما مضطربة ، وقد يستغرق وصول الخطاب ، ثم وصول الرد عليه أكثر من شهرين .

ومضت ثلاثة شهور ، ولم يصلنى شيء ..
ويشئت ..

وبلغ من يأسى أن قررت السفر مرة ثانية الى باماكو ثم الى عدة مدن أفريقية أخرى ، لعلى ألتقى بسامى ، أو لعلى اذا لم ألتق به ، ألتقى بحالة أخرى تعادل حالته ، أستطيع أن أحقق بها هذه النظرية العلمية الجديدة في علم النفس التطبيقي ، التى خطرت لى .. وكل ليلة — بلا مبالغة — أنكب على بحثى ،

واقلب في مذكراتي الطبية وصورى الفوتوغرافية ، وأذكر
مسمى .. وكلما ذكرته لم أستطع أن أنكر على نفسى ، أن
العلاقة بينى وبينه ، ليست مجرد علاقة علمية فحسب .. ليست
علاقة عالم بالبوقة التى يجرى فيها تجاربه .. ولكنها أكثر من
ذلك .. أن عاطفة الأبوة بكل ما فيها من حنان ولهفة ، تغلبنى
كلما ذكرته ..

ومضت عشرة شهور ..

وذات مساء كنت فى عيادتى .. وانهيت من جلسة تحليلية
مع احدى « الحالات » .. وما كادت « الحالة » تخرج من
الحجرة ، حتى دخل مساعدى — وأقا لا أسميه التومرجى —
وتعجبت لدخوله ، خصوصا وألى لم أستدعه .. فالنظام فى
عيادتى يقضى بأن أستريح لمدة عشر دقائق بين كل حالة وأخرى
من الحالات التى تعرض على .. ثم تدخل الحالة التالية طبقا
لكشف الزيارات الذى أوافق عليه قبلها بأسبوع .. فانى أضع
ترتيب الحالات التى أعالجها أسبوعا بأسبوع ، نظرا لطول مدة
الجلسة التى تستغرقها كل حالة .. ولم تجر العادة أن يدخل
مساعدى على بين كل حالة وأخرى ، الا اذا استدعيت ، أو بعد
أن تنتهى كل حالات اليوم فيدخل ليبلغنى بالمكالمات التليفونية ،
أو بأى حدث آخر .. وكنت حريصا على هذا النظام ،
ومساعدى حريص عليه أيضا ، ولم يحدث أن أخل به طوال
السنوات التى عمل فيها معى الا فى مناسبات نادرة ..
لذلك تعجبت عند ما دخل على مساعدى دون أن أستدعيه ،

ولذلك أيضا كان يبدو على وجه التردد والاعتذار ، وهو يقدم
لى بطاقة صغيرة قائلا :

— صاحب هذه البطاقة يصر على أن يقابلك حالا .. انه
يقول انه لم يأت للعلاج .. وأنه جاء من باماكو .. وبما أنى أعلم
أفك مهتم بوضع بحث عن افريقيا ، فقد اعتقدت أفك و ..
وقبل أن يتم كلامه اختطفت البطاقة من يده فى لهفة ..
انه سامى ..

سامى نفسه ..

سامى الداعوق .. واسمه مكتوب على البطاقة باللغة
الفرنسية ..

وأخللت أنا الآخر بنظام عيادتى وطلبت من مساعدى أن
يدعو سامى للدخول على الفور ..

ووقت أنطلع الى باب غرفتى بعينين متلهفتين وخواطر
كثيرة تمر فى رأسى بسرعة ..

هل سأراه صاحب الوجه ، منكس الرأس ، ينظر الى بوز
حذائه ، كما تعودت أن أراه فى باماكو .. وهل سأسمع منه هذ
الكلام الكثير .. كلام بلا معنى .. ثم ما الذى جاء به الى
القاهرة .

وقلبى يخفق .. ولا أدرى لماذا كنت أميل فى هذه اللحظة
العابرة الى التشاؤم ..

لقد خيل الى أنى سأرى سامى انسانا محطما .. منهكا ..

بل ربما دخل على وهو يهرج .. أو ذراعه مكسورة .. أو مشوه
الوجه ..

وفتح الباب ..

ودخل سامى ..

طويل .. قوى .. واثق من نفسه .. وجهه أشد اسمراراً
مما تعودته .. عيناه مستقرتان .. وابتهامة مريحة تهفز بين
شفتيه ..

ومددت له يدي مصافحاً .. وقلبي في يدي ..

ولكنه تجاهل يدي ، واحتضنني بين ذراعيه .. وأحسست
بنفس الرغبة في ضمه الى صدرى .. كأنى أضم ابنى الذى
اشتقت اليه ..

ثم سألته والسعادة بقلائه تملأ صدرى :

— كيف حالك ..

قال فى قوة :

— كما ترى فى أحسن حال ..

قال :

— والعائلة ؟

قال :

— كلهم بخير .. وكلهم يبلغونك الحب والشوق ..

قلت :

— وسامية ؟

قال وهو يضحك فى حنان :

— انسانية أخرى .. انها لم تعد تكتفى بأعمال البيت ..
انها تشارك سليم في أعمال الدكان .. تصور .. من كان يعتقد
أن سامية يمكن أن تفعل كل ذلك ..

وكنت أسأله في لهفتي ، عن حال بيندا ، ولكنى تراجعت
.. خفت ألا يكون هذا هو وقت السؤال عنها .. وسألته :

— ماذا جاء بك الى القاهرة .. انها مفاجأة ..

قال وهو يبتسم :

— هذه قصة طويلة ..

ولم يكن لدى وقت لسماع القصص الطويلة ، فعدت أسأله :

— لقد أرسلت لكم خطابا ..

قال وهو يبتسم :

— وصلنا ..

قلت :

— ولم ألق ردا ..

قال وكأنه يرى شهوة الاستطلاع في صدري :

— هذه قصة طويلة أخرى ..

قلت وأنا في لهفة لسماع هذه القصص الطويلة :

— اسمع .. ان أمامي ساعة أنتهى بعدها من عيادتي ..

ماذا تفعل هذا المساء ؟

قال :

— لا شيء .. لقد جئت الى القاهرة خصيصا لالقاءك ..

قلت :

— اذن ، اذهب وتجول في شوارع القاهرة ، أو اجلس في
محل جروبي المواجه للعيادة .. وعد الى بعد ساعة .. وستناول
العشاء سويا ..

ومد يده وصافحني في حرارة قائلا :

— اتفقنا ..

ولم يكد يصل الى الباب حتى عاد والتفت الى قائلا وهو
يبتسم :

— انك لم تسألني عن بيندا .. انها تسلم عليك كثير
السلام !

وخرج ..

وأنا أظروا في دهشة ..

وبذلت مجهودا عنيقا حتى أنقلب على دهشتي ، وحتى
أحرر عقلي من الخواطر الكثيرة التي تتدفق فيه ، لأنفرد
لاستقبال الحالة التالية التي تنتظري في غرفة الانتظار ..



وعاد سامي بعد ساعة بالضبط .. وصحبته في سيارتي
وذهبنا الى بيتي في الزمالك ، لتناول العشاء .. وحرصت طول
هذا الوقت على أن يكون حديثنا عاما عن ذكريات باماكو ،
وعن القاهرة التي اصطدم سامي بضخامتها لأول مرة في حياته ..
لم أحاول في هذه الفترة أن أسأله عن هذه القصص الطويلة

التي أشار إليها .. كنت أريد أن أسمعها متكاملة متسلسلة دون
أن يتدخلها رنين الشوك والسكاكين ونحن نتناول العشاء ..
وبعد العشاء ، جلسنا في غرفة مكتبي على مقعدين كبيرين
ندخن ونشرب القهوة ، وقلت له في صوت متراخ كآلى طفل
يريد أن يسمع حكاية قبل أن ينام ، في حين أن عقلى كله منتبه
كأنه يشب على أطرافه ليرى المشهد كاملاً :
— والآن لنبدأ القصة من أولها ..

قال :

— من أين ؟

قلت :

— أين اختفيت بعد أن تركت غرفتى في الفندق .. في
باماكو .. ولماذا لم تأت لوداعى ؟
واستراح في مقعده وهو ينظر أمامه كأنه يد عينيه ليصل
الى باماكو ، وقال :

— أحسست يوماً الى في حاجة الى أن أخلو الى نفسى ..
كنت في حاجة الى أن أراجع قصة حياتى التى كنت أجهلها
وأطلعتنى عليها .. وكانت حقيقة الى من أم رنجية تقف في
حلقى كالحجر .. وكنت في حاجة الى أن أبتلع هذا الحجر ، وأن
أهضمه .. فأخذت بيندا وذهبت بها الى الغابة ، حتى أهضم
الحجر في هدوء ..

قلت :

— لقد سألتنا عنك في القرية فلم نجدك ..

قال :

— لم نذهب أنا وبيندا الى القرية .. بل ذهبنا الى الجانيب الآخر من النهر ، عند سفح جبل كولوبا .. نفس المكان الذي اجتبا فيه أبى وأمى عند ما تزوجا .. وعند ما ولدت .. وأقمنا هناك بين الأشجار كوخا من أكواخ الزنوج ، اجتبانا فيه ..

قلت :

— وكيف تحققت من المعلومات التى أدليت لك بها ..

قال :

— لم أحاول أن أتحقق منها .. كنت مقتنعا بأن ليس هناك سبب يدعو لك لأن تكذب على ، أو تفتزع قصة من خيالك .. كل ما هنالك أنى كنت أمتزىد بيندا من التفاصيل .. أياما طويلة قضيتها وأنا أسألها عن أدق التفاصيل .. وكنت أحس دائما أن بيندا قريبة منى جدا .. قريبة من قلبى .. أحسست بألى فعلا أحبها .. هذا الاحساس دفعنى لأن أصدق ألى تزوجتها عند ما كنت مزدوج الشخصية .. ودفعنى الى زيادة التسليم بكل التفاصيل التى أسمعها .. ولكنى كنت حائرا .. كنت مشغول العاطفة فيما عدا احساسى بحب بيندا .. لم أكن أستطيع أن أثور ، أو أن أهذا .. أو أغضب أو أفرح بما أسمع .. مضت على أيام لم أكن أحس فيها بألى السان أبيض ، ولا بألى انسان أسود ، ولا بألى مائيس .. كل ما بدأت أحس به هو أنى أريد أن أرى هذه المرأة التى اكتشفت أنها أمى .. لم أكن أيامها أحس نحوها بعاطفة الابن ، ولكنى كنت أريد أن أراها ،

كأنى أريد أن أرى لون دمي .. مجرد رغبة في الاستطلاع ..
وكنت خائفا .. خائفا من أن أذهب اليها .. ومضى أكثر من
خمس عشرة يوما .. وأنا متردد في الذهاب .. ثم ذهبت ..
وسكت سامى ، وهو يتلع ريقه ، ونظرته مسدودة الى
الأمام .. وظل فترة طويلة ساكنا .. وأنا ساكت بجانبه .. ثم
قلت كأنى أفيقه من أحلامه :

— لقد كان الكاباكا يبحث عنك خلال هذه المدة .. وعن

بيندا ..

قال كأنه يحدث نفسه :

— اعتقد أنه عرف غيبانا ، ولكنه لم يشأ أن يفرض إرادته
علينا .. إنه فيلسوف كبير .. تركنا الى أن تعود اليه بإرادتنا ..
وقد عدنا .. صحت ذات صباح وأنا لا أطيق الانتظار حتى
أرى أمى .. وأخذت بيندا وذهبتا الى القرية .. واستقبلتنا
الكاباكا صامتا ، منتصبا أمامى كظلال الليل .. لم يتكلم .. لم
يسألنى شيئا .. وأنا ألظر فى وجهه فأرى فيه أشياء كثيرة جديدة
.. أرى فيه نفسى .. وأرى فيه بيندا .. وأرى فيه أمى .. إنه خالى
.. وتمتعت وقلبي فى حلقى : « أين هى ؟ » .. وفهم الكاباكا
ما أعنيه .. ومد ذراعه القوي يشير بأصبعه نحو الكوخ الذى
ترقد فيه أمى .. وتركنى أذهب اليها وحدى .. وبيندا تسير
خلفى .. ودخلت الكوخ وركبتاى تتغلبان عنى .. ترتعشان ..
أكاد أقع فى كل خطوة .. ورأيتهما .. كومة من العظام السوداء
ملقاة على سرير جاف .. ولم أصدق أن هذه العظام هى أمى ..

لم أصدق .. لم أستطع أن أصدق .. ولكنها عند ما فتحت
عينيهما وصوبتهما الى ، رأيتها .. رأيت أمي .. رأيت طفولتي ..
رأيت المرأة التي كانت تدلّني وتروي لي أساطير الزنوج ..
وشبهت أمي عندما رأيتني .. ومدت ذراعيها الى .. عظمتان
مكسوتان بالجلد الأسود .. وشفتاها ترتعشان بشدة .. كانت
تناديني اليها .. الى صدرها .. وقاومت .. ولكنني لم أستطع
أن أقاوم طويلا فألقيت نفسي بين ذراعيها ، فوق صدرها ، وأنا
أهمس « أمي .. ماما » .. وأحاطتني بذراعيها وضممتني بشدة ،
تصل الى حد أنني تأملت .. قوة عجيبة كانت في ذراعيها اللتين
تضماني .. كأنها جمعت كل حياتها فيهما حتى أبقى فوق صدرها
الى الأبد .. ثم .. شعرت أنها همدت .. ألقاسها التي تنهب على
وجهي خمدت .. وتسمعت قلبها .. توقفت .. ماتت .. ماتت أمي
وأنا فوق صدرها .. وحاولت أن أعتدل في جلستي بجانبها ..
ورغم أن الفزع من الموت قد أثار في قوة الالتفاض ، الا ألى
لم أستطع أن أتفرض .. ذراعاها كالتا متخشبتيْن حول ظهري ..
لا أستطيع الفكك منهما .. تضماني الى صدرها الى الأبد ..
صدر أمي ..

وسكت برهة يسمح دمة كبيرة الحدرت على خده ..

وسكت أفا احتراماً لدمعه ..

ثم قال وهو تنهد ويزفر حزنه :

— وجاءت ينيذا وفكت ذراعي أمي من حولي ..

وأغمضت عينيها اللتين كاتتا تبعلقان في وجهي .. لكنني لازلت
أشعر حتى اليوم أن أمي تضمنني إلى صدرها .. وإلى الأبد ..
واستطرد قائلاً وهو يحاول أن يبدد حزنه :

— ومن يومها عشت في القرية .. لم أتعهد أن أعيش فيها ..
ولم يدعني أحد كي أعيش فيها .. ولكنني بعد أن خرجت من
كوخ أمي .. شعرت أنني في قريتي .. وعندما دخلت كوخ
الكتاباكا شعرت أنني أدخل بيتي .. كل شيء يبدو طبيعياً ..
والأهالي ينظرون إلى بلا تعجب ، وبلا تساؤل ، كالأبي واحد
منهم .. حتى طقوس الدفن الزوجية التي اتبعت عند دفن أمي
لم تبد لي غريبة ولا منفرة .. بل أثارت دموعي .. ثم مع الأيام
اكتشفت أنني أجيد لغة الولف .. ولم أكن أعلم أنني أجيدتها إلى
هذا الحد .. ثم اكتشفت أنني أستطيع أن أرقص كل رقصات
الزواج .. ولم أكن أعلم ذلك أيضاً .. عشت بين أهل أمي كالأبي
عشت معهم طول عمري .. نسيت أنني أبيض .. ربما كانت بعض
تصرفات أهلي تذكرني بأبي أبيض .. وربما كان بعضهم يعاملني
بنوع من التعالي المشوب بالاحتقار .. وربما كان بعضهم لا يزال
يغار مني لزواجي من بيندا .. ولكن مع الأيام اختفت هذه
التصرفات ، وضاعت هذه المعاملة .. ونسيت أنني نصف
أبيض ، ولسوا هم أيضاً ..

وسكت سامي ..

وقلت بسرعة :

— وسليم ؟

وقطب حاجبيه وقال فى صوت حزين كأنه يرثى أخاه :
— لقد جاء سليم الى القرية عندما علم بوجودى فيها .
ودهش عندما وجدنى أقيم بين الزوج وأنا فى حالة طبيعية ..
لقد تعود ألا يرانى بينهم الا وأنا فى حالة ازدواج الشخصية ..
وألح على أن أعود معه الى المدينة .. الى أهل أبى ..
وترددت .. لم أسترح لفكرة العودة الى الحياة فى بيت أبى ..
ورغم ذلك كان يجب أن أجرب .. فذهبت معه .. وتركت
زوجتى بيندا فى القرية .. تركتها وهى تنظر الى بعينين مرعوبتين
.. خافت أن أكون قد عدت الى حالتى السابقة .. حالة مرضى ..
وطمأنتها .. وذهبت .. عشت مع سامية وسليم أسبوعا ،
حاولت فيه أن أكون طبيعيا .. أن أهدأ .. أن أستريح .. أن
أقنع نفسى أن هذه دليلى .. ورغم أن أحدا من كل المجتمع
الأبيض لم يكن يعلم بقصتى .. سامية نفسها لم تكن تعلم ..
الا أن المشكلة كانت فى نفسى .. ووجدت نفسى أواجه مشكلة
الاختيار .. يجب أن أختار دليلى .. يجب أن أختار بين المدينة
والقرية .. يجب أن أختار بين أهل أبى ، وأهل أمى .. واخترت
.. عدت الى القرية .. الى دليلى .. واتفقت مع سليم على أن
أبقى فيها .. وبقيت ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ، ونظر الى فى تعجب قائلا ولهجه
البنائية تضج بين شفتيه :

— لماذا تبسم يا دكتور .. ألا تصدقنى ؟

قلت وأنا أضحك :

— بالعكس .. انى أصدقك جدا .. لقد ذكرت الآن نتيجة بحث طويل كنت أعده ..

قال فى دهشة :

— أى بحث ؟

قلت :

— لقد قدرت أن مشكلة الاختيار ستواجهك .. ولأنك عرفت حقيقتك وأنت كامل الإرادة ، فقد استطعت أن تختار .. أما الأولاد المخطرون الذين يواجهون المشكلة وهم أطفال ، فانهم يفقدون القدرة على الاختيار ، ويضطرون الى الوقوف فى الوسط .. وهكذا تكون مجتمع المائيس ..

قال مبتسما :

— إن كل شىء تسعنه ، تحوله الى نظرية علمية ..

قلت :

— هذه مهنتى !

وبدا سامى يشعل سيجارة ، وتمجّله قائلا فى لهفة :

— ماذا حدث بعد ذلك ؟

وهز كتفيه فى استخفاف قائلا :

— طردلى الفرليسيون ..

قلت فى دهشة :

— طردوك ! طردوك من أين ؟

قال :

— من جميع مستعمراتهم ..

قلت :

لماذا ؟

قال :

— لأنى طالبت بحقوق أهلى .. لقد بدأت المشكلة عندما علمت أن شبان القرية يعملون فى إحدى مزارع الفرنسيين بأجر أقل من ربع أجر العامل الأبيض .. أقل من ربع أجرى أنا .. أجر لا يكاد يفى بـشمن الحبز .. فذهبت الى صاحب المزرعة وحاولت اقناعه بأن يدفع لهم أجرا كاملا .. حاولت اقناعه بكل الحجج المنطقية .. ولكنه رفض أن يقتنع .. وطردلى .. وقال عنى أنى مجنون .. وفى اليوم التالى نظمت مظالبة جماعية من عمال المزرعة .. ذهبت بهم كلهم الى صاحب المزرعة .. ولكنه لم يقتنع .. ورفع سماعة التليفون واستدعى البوليس فجاء وقبض على كل العمال .. سجنوا .. وضربوا .. وتركونى أنا لأنهم اعتقدوا أنى لست منهم .. واعتظمت .. اغتظمت لأنه لم يقبض على كبقية أهل أمى .. وانتظرت الى أن جاء صاحب المزرعة بعمال آخرين ، فحرضتهم على الاضراب ، الى أن ترفع أجورهم .. ولكنهم اندفعوا فى ثورتهم وحطموا مكاتب المزرعة ، وأتلفوا كمية صغيرة من المحاصيل .. كمية صغيرة جدا ، ولكنها كانت تكفى لاعداد عشرة منهم .. والحكم على الباقين بالسجن .. وفى هذه المرة سجنتم معهم .. ولكنهم أخرجوا عنى بعد أسبوعين .. ودهشت للافراج عنى .. ثم علمت أن سليم قدم رشاوى لضباط البوليس للافراج عنى ..

قلت في دهشة :

— هل كان سليم مشتركا معك ..

قال :

— لا .. لقد كان بعيدا عني .. وكنت أحرص على أن أبقيه بعيدا عني .. فلم يكن مؤمنا بما أفعل ، وكان حريصا على صالح تجارته .. ولذلك لم يرد سليم على رسالتك .. خشي أن يقرأ الرقيب الفرنسي رده ، ويعتقد أنه يقوم باتصالات سياسية مع القاهرة .. خصوصا وأنه كان موضوعا تحت المراقبة .. لأنه أخى .. ولأنه لم يتخل أبدا عن حبه لى ..

قلت وأنا أبتسم :

— لقد تصورت كل الأسباب لعدم الرد على رسالتي .
الا هذا السبب ..

واستطرد سامي قائلا :

— لقد خرجت من السجن وأنا مقتنع بأن لا أمل في أن يأخذ أهلى .. أهل أمى .. حقوقهم الا اذا خرج الفرنسيون .. فبدأت أشتغل في السياسة .. في الثورة .. وانضمت الى الحزب الديمقراطي الاشتراكي .. واقنعت الكاباكا بالانضمام اليه .. كل أفراد القبيلة انضموا الى الحزب ، وأصبحنا نمثل داخله جناحا ثوريا قويا .. وكنت أقف وأخطب وسط الزنوج . وكنت أشارك معهم في حملات التخريب .. وعرف كل الوطنيين اسمى . في كل أنحاء السودان الفرنسي .. وكانوا يسموننى

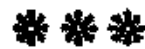
« سامو » .. واجدت الاختباء من البوليس .. ولكنهم قبضو
على أخيرا بعد أن خاتنى أحد الجواسيس الزوج .. ان الحياة
في كل المجتمعات .. فلماذا لا تكون بين الزوج .. وبسرعة .
في خلال ثلاث ساعات أمر الفرنسيون بترحيلي .. بطردى من
افريقيا كلها ..

وسكت سامى برهة ثم قال فى أسى :
— لقد رحلت دون أن أودع بيندا .. لم يسمحوا لى
بتوديعها ..

ثم رفع رأسه الى وقال مبتسما :
— أتعرف أن بيندا حامل ؟
قلت فى فرح صادق :
— مبروك .. أرجو أن يكون ولدا كأييه ..
قال وهو يتسم :
— أو بنتا كبيندا ..
وسكتنا نحن الاثنان كأننا نحيا على البعد بيندا .. ثم
سأله :

— هل ستبقى فى القاهرة طويلا ؟
قال :
— يومين فقط .. ثم أستم فى طريقى الى لبنان .. هناك
أهل أبى ..
ثم ابتسم مستطردا :

— كان يجب أن أمر على القاهرة لأراك .. أنت الذى
اكتشفتنى !
قلت فى صدق :
— أنت الذى اكتشفت نفسك .. عندما اخترت مجتمعا ..



وقضى سامى يومين فى ضيافتى ، ثم ذهب أودعه فى المطار ،
وقلت وأنا أمد على يده :
— أرجو أن تعود الى بيندا قريبا .. لترى ابنك ..
قال فى ايمان :
— سأعود قريبا .. بعد أن يخرج الفرنسيون .. بعد أن
نتتصر .. وانتصارنا أقرب مما تتصور .. سنتتصر قبل أن يولد
ابنى .. انا قوة هائلة ..
وكان يعنى الزوج ..

تمت



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المبرقة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم خيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبع بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

سُيِّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتتتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتل في كل العالم الثالث.
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في
وجدان أهلى وعشيرة أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والتكر والحضارة.

سوزة

Bibliotheca Alexandrina



0338840



مائة وخمسون قرشاً

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

To: www.al-mostafa.com